



- ١ - حتى يتسم أحد
- ٢ - ما أحلى الإيمان وفيه أمان
- ٣ - سأعيش رحيق الحياة
- ٤ - الزهور دائماً تتفتح
- ٥ - فجر للصيادين



شفاء

وتدور الأيام وأحمد يقترّب من الشفاء .

وترك المستشفى إلى سكن هادئ وهو يستكمل ما تبقى له من علاج .

وربما كانت التجربة التي مر بها أحمد قد فجرت بعض ما يعتمل بصدرة من انفعالات شتى ، ولكنها كلها متجهة إلى خير مصر . وكان أحمد غاضباً وخائفاً ، كان يريد أن ومتطلعاً إلى أمل كبير .

وجلس معه كثيراً ، وجلس معنا كثيرون ، وامتد الحوار أياماً . وابتعد القلب عن شوق ، وعاد الطفلان يلبان في هو سعيد . . . وكانت الشمس دائماً حانية في عطف . وتقفز القطة الساذجة إلى أحمد في كل دفء الأمان .

يقول أحمد

رأيتها في منامى بالأمس ، ورأسها الصغيرة تتحرك في كل الدهشة ، وعيناها واسعتان متساثلتان . ونظرت إلى حيث تنظر ، ورأيت الرجل القامض يقف قريباً مني

حتى يتلسم احمد

قريب جداً وأماننا نبتت بعض الشجيرات يحيط بها عشب أخضر ، ثم شجرتان كبيرتان تغطيان مساحة من الأرض بظل وارف أثناء النهار ، وهما عملاقان ضخمان مع سواد الليل . وعلى مرى انبصر تمتد أرض صفراء يشقها طريق ممهد نجوبه السيارات . وينتهي إلينا صوت المذبذب من داخل البيت أو من منازل مجاورة . وانضمت شوق إلى بمنسنا .

قال أحد الحاضرين وقد جاوز الأربعين بقليل ويكاد ينتهي من رسالته للحصول على الدكتوراه : في محاولة لي لسبر أغوار العلاقة الدينامية بين الفرد والمجتمع أجد آراء شتى ، وأجد واقعا فيه غير قليل من التناقض وفي مصر قد أجد أن ضباية نجر ، وفارقاً بين القانون والتنفيذ

وران شيء من الصمت الضكبرى ، وصار لكل من الحضور شيء من التأمل والاستبطان . وتطلع كل لغيره ، ورأيت عيوناً تنجيه لأحد ابنسم كعادته وهو يتطلع إلى ، وأنا انطلع إلى استاذ جليل ، واستأذنته أن يسمح لي برجاءه لحدثنا ولو قليلا .

اهتز تاج من الشعر النضى يعلو رأسه ، وداعبت أصابعه حبات مسبخته من الكهرمان العتيق وهو يقول

هي هدية جاءتني من صديق عاد بعد أداء فريضة الحج . . . وتمهلت أنامله وهو يفكر كيف يبدأ الحديث قال

حتى توضع الأمور في نصابها ، فأنا أعلم أن الكثير مما سوف أقوله ربما سمعتم به أو قرأتم عنه أو عن بعضه من قبل ، وأنتم صفوة . وأنا أعلم أن بعض ما سأقوله قد يراه بعضكم سياحة في أبراج عاجية ، قد يراها

بعضكم أو غيركم ، مملوءة بكلام نظرى بعيد عن الواقع الفعلى . ونحن نعلم أن رأى الفردى فى مجتمع اشتراكى ديموقراطى حرى به أن يسمع ، والكلمة المكتوبة إذا رفعت تقرأ .

ونحن نعلم أن التنظير غالباً سابق للتطبيق ، وحق للفكر أن يسبق العمل ، كما أن نتاج التطبيق العملى قد يؤدى إلى تغيير فى الفكر النظرى وغالباً تكون هناك أرض مشتركة بين المفكرين فى مجالات التربية والعاملين فى المدارس والإدارات التعليمية . إذ ليس كل أساتذة التربية نظريين ، وليس كل العاملين فى الحقل واقعيين .

وعلينا أن نعلم فى تأكيد واثق أن صاحب الفكر التربوى الذى عاش للتربية وأنواعها وإعصاراتها معلماً واستاذاً ومفكراً لا يملك برجاً عاجياً يسكنه لأنه محتاج دائماً أن يضع قدميه على أرض الواقع وتحلق رأسه سانحة فى سحب آملة متفائلة . وهو وإن وقف على أرض مجتمعه فإن عينيه تطلان شاخصتين من على مجتمعات أخرى ، ثم تعودان إلى حيث تقف القدمان .

ومصرنا العزيزة غنية بهؤلاء المفكرين ، وفيهم خير وفير ، سواء من العاملين فى التدريس أو الإدارة أو غيرهم . لذلك فإن مدرس المدرسة الابتدائية له رأى ويجب أن يحترم ، وله قول ويجب أن يسمع ، وحرى به أن يشترك فى اتخاذ القرار حتى يستطيع أن يقتنع بضرورة وأهمية وحثية تعليم أطفاله فى المدرسة أموراً تكاد تخلو منها مدارسنا منها الاشتراك فى اتخاذ القرارات أنا لست فى برج عاجى بل فى صميم أرض بلدى حيث يجب أن تكون . ما يجرى فى مدارسنا عجب ، المعرفة هامة ولكن الأكثر أهمية هو كيفية استخدام المعرفة . ما أسهل أن تعطى المعرفة - وقد حولها بعض الأخوة إلى ملخصات وبهريزات ومنجذات ومنقذات

في كتب صغيرة ملخصة يحفظها النشئ وتنسى بقدرة القادر العلي - ولكن الصعب كيف نستخدمها . هذا هو التحدي الحقيقي على كافة المستويات والمراحل التعليمية .

أود أن أقول - إذا سمحتم لي - إن هناك تغيراً حاداً من حولنا وفيها . وعندما أتكلم عن المشاركة في اتخاذ القرارات فلست أعني مطلقاً مجرد تقبل التغيير ، ولكن في ركائز عملية اتخاذ القرارات التي توابك هذا التغيير : : : وخاصة بالنسبة لأولئك الذين يقومون بالتنفيذ لعلنا نتطلع إلى موقع يكون فيه المنفذ شريكاً مع من يصدر قرار التغيير هي شورى ، وهي تعاون ، وهي تآلف في حب لخبر الغير هنا تحمى الفارقة بين (الكبير) و (الصغير) ، بين من يقبض مرتباً أعلى ومن يقبض مرتباً أقل . خذ العلاقة بين النظافة والمرض والطب . علاقة وطيدة في أغلب الحالات ، إذ لو حرص الكناس وحامل القمامة لما تكاثرت الحشرات وتكاثر الذباب وتقل أسباب نقل العدوى ويقل المرض أو أن هذا ما أتصوره ، وقد أكون على خطأ . والتشبيه مع الفارق الضخم الكبير ولا علاقة له مطلقاً بالعملية التعليمية ، فإن الممرض في المستشفى الكبير هو معين هام لأكبر جراح . إن إهماله قد يفسد عمل الطبيب الكبير بل قد يهدمه . هنا يكون مربوط القروس ، كل عمل له احترامه وقديسته وأهميته . ويجب أن يقدر . أنت وأنا نحتاج إلى رغبة الخبز ، لنحترم إذن الخباز ، بلونه لن نأكل . نخترمه يعني أن نقدر عمله ونجله : : . ونشكره . ما نتصوره أعمالاً صغيرة هي كبيرة في الواقع . من هنا تأتي قيمة احترام العمل ، وهي قيمة - إذا سمحتم لي - أتفقدتها في مناهج مدارسنا للأسف وللأسف الشديد - وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته .

أعود فأقول ، إن المجتمع ينضج عندما تكون الأفكار المعارضة:

وسيلة للتصحيح والتصويب إنطلاقاً إلى رأى فيه سداد ثم إلى تنفيذ فيه تقدم للمجتمع . على أعلى المستويات والمناصب الإدارية من وزراء وغيرهم ينسحب القول : إن الأمر شورى ولا بد أن يكون شورى هذا يعنى أن لكل رأى أهميته وقيمه ، وأن رأى الكبير - إن كان فى العلم كبير بمنصبه - هو رأى فرد يطرح على بساط النقاش والبحث والدراسة ، وكل رأى من الآراء الأخرى له نفس الأهمية والاحترام والتقدير وإلا صارت الأمور تجرى فى فلك من ديكتاتورية متسلطة لا ترتضيها شريعة الله ولا اتجاهات مجتمعا . وإلا عدنا إلى مجتمعات الإغريق القديمة ، فالسادة كانوا يفكرون للعبيد ، وعلى العبيد أن يتقبلوا وينفذوا ، وعدد العبيد بالنسبة للسادة حوالى عشرين ضعفاً . لتقف ونتمهل ونفكر ، إذ أن العبد هو من يترك لغيره أن يفكر له . وليس أبداً هذا مجتمعا ، وليست أبداً هذه مصرنا الحبيبة ذات الحضارة التى تمتد إلى أكثر من سبعة آلاف سنة .

مصر اليوم هى مصر التى يجلس كبير القوم إلى القوم من فلاحين وصيادين وغيرهم يناقشهم ، ويستمع إليهم ، وتنتفح الصدور والقلوب ، ويكون لقاء الأب مع أبنائه للخير . ثم لقاءات بين وزير التعليم وكبار رجال التعليم ، وفيها أخذ وعطاء . . . لكن على المسئولين أن يلتقوا مع المعلمين ويكون حوار جاد ، ويكون نقاش هادف ، ولنستمع ، ولنعرف ونفهم ونعى ماذا يحدث فعلاً فى المدارس ربما هنا نبدأ أول خطوه فى الإصلاح . . من يدري ؟

. . . ويتوقف المتحدث

واتطلع إلى أحمد فأرى محاولة ابتسامه ترتسم على شفثيه وتحاول أن تكسر قسبات وجهه . ويعود المتحدث يقول

أعود - وأرجو أن تسمحوا لي - فأقول إن ما أشرت إليه هو الديمقراطية الحقة ، هي الشورى بأجل وأعظم معانيها ، ويجب أن تؤكد الآن في عزم وحزم . ولن يتأتى هذا إلا إذا بدأنا بتربية جديدة لأطفالنا ، وإعادة تربية لشبابنا ، وإعادة وإعادة تربية لمن يعملون في وظائف الدولة ويتعاملون مع جماهير الشعب ، بأية صور وأية سلطات . بل والأمر الهام أن أمدى بإعادة تربية لقيادات إدارية في شتى المجالات . ليس عيباً أن يتعلم الفرد مهما علا منصبه ، ولكن العيب في تصوره أنه قد وصل وكفى . أبداً ، فإن للإدارة أصولاً ومن أهمها العلاقات البشرية .

وقد تمر سنوات وسنوات حتى يصل المفهوم والمدرک إلى العقول ثم إلى التنفيذ . لكن يجب أن نبدأ الآن ، وحنماً لأن ، إذ أن التراكمات تزداد وتزداد ، ويجب أن يكون هناك عمل حاسم وسريع ربما هذه هي مشكلة القائمين على إدارة العملية التعليمية في مصر العزيمة . وكان الله في عونهم ، فالأمر جد صعب ربما هي منى صرخة ألم في تربية الشعوب المنطلعة إلى تقدم .

وحتى يكون حوار في مناخ مشبع بعاطفة حب مصر ، فلهل الأفكار الصادرة عن عقول مخلصه تجذب قبولاً في مساواة عملية . والكبير كبير بقدر ما يعطى حقاً للغير ، والصغير صغير بقدر ما يعطى بهتاناً لنفسه . وعند ما يكون الحوار موضوعياً ، والأمر شورى ، فسوف تنبت الأشجار ثماراً حلالاً تعطى آكلها قوة وصحة ومنفعة . والرأى السليم النابع من حوار متكافئ هو الذى يمهّد الطريق إلى شاطئ الاتفاق ، ثم إلى عبور للتقدم .

والتقدم سمة عصرنا الذى تتألق فيه التربية قوة وفضيلة وثروة . وقوة التربية برفعها إعصار جبار يؤثر على كل ما ينتشر على أرض الواقع . إذ كيف يكون هناك تغير في مجتمع دون أن يكون هناك تغير في أرواد هذا المجتمع .

والمجتمع يضم أفراداً بينهم علاقات ، وخلفهم آلام وأمامهم آمال ه
وبقدر ما يكون تضافر وتعاون الأفراد يكون خير هذا المجتمع . ويجب أن
يكون التعاون على البر والتقوى . وكَم من مشروعات نجحت بالجهود الذاتية
وعزم الإدارة الجماعية . هذه الإرادة الخيرة هدف هام من أهداف التربية

التربية - وهذا عصرها - عملية نمو إجرائية تدعو (إلى) وترى
(إلى) ، وتؤدي بنا (إلى) . فهي وإن كانت تجري الآن حيث يعيش
المتعلم حاضره ، فهي أيضاً تعده من جميع جوانبه إلى مستقبل ، ربما نعلم
عنه شيئاً ونجهل أشياء خاصة مع سرعة التغير .

التغير الحادث جبار ، إذ يحمل عملية التربية إلى عين الإعصار الذي قد
يلفظها لأنها لا تلاحق التقدم والتغير الحادث في مجتمع يتسم بالوحدة
العضوية . بل ، ربما لم نأخذ أخذاً سريعاً وعميقاً بثورة الاتصالات ،
الأمر الذي يتطلب نظرة جديدة فيما تؤثره هذه الثورة في المناهج الدراسية
وطرائق التدريس . أخشى من هذا الاتساع المضطرب بين الدول المتقدمة
والنامية . ولن نستطيع أن نعبّر التخلف بأساليب وتقنيات تقليدية ، ولكن
بثورة علمية جادة محطمة لخطوط الخوف والتردد ، حتى يستطيع الإنسان
المصرى في مسيرة بنائه إقتحام طريق التقدم .

والتقدم يحدث بتربية سليمة فيها عصرة العصرية من حيث المحتوى
والأساليب . وفوق كل هذا القوى البشرية الفاعلة المؤثرة على عقول
ونفوس وقيم وأجسام أجيالنا المساعدة . والتربية عملية إنسانية في المقام
الأول ، لأنها تتعامل مع الإنسان الذي كرمه الله .

وحتى يكون النمرد إنساناً فيجب أن تبرز شمس الكرامة بدفئتها ونورها .
وللإنسان معايير وقيم خلقية ، ولو قل السلوك الأخلاقي في مجتمع ما أو تناقص

بشكل ملحوظ تصير الأمور فوضى وتتحكم شريعة الغاب . بل لعل هذه الشريعة البشعة تتحكم في أحيان غير قليلة بالوعى أو اللا وعى في تصرفات تؤدى إلى كـوف شمس فيظلم نهار المجتمع ويتوارى نور الحق . بل قد تأخذنا هذه الشريعة الغابية إلى قاع محيط حيث أسلمك الكبير يأكل السمك الصغير . ثم نصعد إلى السطح ، ثم إلى اليايس ، وما زال الكبير - أحيانا - يلتهم الصغير ، ثم ينام الشبان ملء الجفون ! !

مهمة كبرى للتربية تنشئة الفرد ليكون إنساناً في مجتمعه ، وهذا يتطلب التعامل مع الفرد بأن له نفس الحقوق التي لغيره وأن عليه واجبات نحو غيره ومجتمعه . والتربية هنا تهدف إلى خير الفرد وخير المجتمع فلا هي تسمح للفرد بالطغيان ولا للمجتمع بالطغيان ، هي عملية فردية واجتماعية . وإذا كان من حق الفرد على الدولة أن تعلمه ، فليس هذا حقاً مطلقاً ، إذ للدولة أيضاً حقوقاً على الفرد ، وعليه واجبات لإزاءها . والمفروض أن يكون هناك اتصال وثيق بين الجهد الذى يبذله المتعلم واستعداداته وقدراته ، هذا من ناحية الفرد . وكذلك بالنسبة للمجتمع فيكون هناك توازن بين ما تبذله المؤسسات التعليمية ، وإمكانات وقدرات الأفراد واتم تحدثون كثيراً عن الفروق الفردية .

• • •

وساد شيء من الصمت

ووجه أحمد يزداد ارتياحاً

ويبعث الأستاذ الجليل بمخصلات شعره الفضى ، وعيون البعض تلتهم كلامه وتستوعب إشارات يديه وخلجات وجهه ، وغضبه أحياناً وابتسامات كثيرة تغطي وجهه أحيان أخرى والمسبحة تتهاذى آمنة بن أصابعه .

ثم قال أعود إلى حق الفرد وحق المجتمع ، ولى رأى ، قد لا يعجب المسئولين ، ولكننى أرجو أن يعالج بسعة صدر ، ورائدى خير الأفراد وخير المجتمع .

مجانبة التعليم إنجاز عظيم ، ونحن نفتخر به عالمياً . أنا فى الواقع فـالأمر محير ويدعو إلى التساؤل والتفكير . والتمازج الذى وضعه الإنسان ، هو نفسه قادر على تعديله وتغييره ، والحياة فيها من التجارب الكثير ، وفيها نجاح وفيها فشل . أسأل : هل هناك خير فى استمرار التعليم العام (ابتدائى ، وإعدادى أو متوسط ، وثانوى أكاديمى) بشكله الحائى ومضمونه دروس خصوصية ؟ ثم أسأل هل نساوى بين التاديين مالياً - وعن سعة - وبين الفقراء والمعوزين ؟ هل هى ديموقراطية تعليم أن يتعلم ابن القادر بمدرسين خصوصيين فى بيته أو بيت مدرسه ويحضر إلى المدرسة إتماماً لعملية شكلية أو استعراضية ؟ هل نلوم المدرس بمرتبته المحدود إذا كان فى الدروس الخصوصية كز ثمين ؟ هل نلوم المدرسين لمواد ليست فيها دروس خصوصية إذا فتر حماسهم ؟ هل نلوم المدرسين فى سابقهم المهوم للسفر إلى الخارج للعمل ؟ إننى أجد هذا المعلم (وطبعاً المعلمة) الذى يقف أمام أكثر من خمسين طفلاً يحاول أن يعلمهم ، وفيهم الطيبون وفيهم الشياطين . أيقرب هذا من العمل المستحيل ؟ أعلم أن مصانع الأحذية فى افتقارها إلى العمال ، ترغب الأفراد فتعطى كل واحد مبلغاً يصل إلى خمسمائة جنيه كمنقدم من حقه ولا يعيده ، ثم تعطيه جنينين فى اليوم .

عفواً فقد حدث عن الخط أعود . لعلى أطلب من المسئولين لإجراء دراسة جادة أكرر جادة فى ظاهرة الدروس الخصوصية

تدخل أحد الجالسين مقاطعاً لا نكثر القول على المدرسة

وما أدت إليه من تسيب في المجتمع ، وهو أمر بلغ الحلقوم وصار شيئاً يثير القلق ، والعقوبات غير رادعة ، ونشالون يقبض عليهم ولم أكثر من خمس عشرة سابقة ، وربما تعلموا في السجن حيلةً أخرى . . .

لا يجب أن نحمل المدرسة فوق طاقتها ، وظروفها معروفة وإمكاناتها معروفة أيضاً ، إذ أن هناك وسائل أخرى كالكليب ووسائل الإعلام ، وهي مسئولة ، بل ربما لا تتآخى مع ما نحاول المدرسة أن تفعله . أبحث عن علاقة تعاونية فاعلة في بناء الطفل المصري حتى لا يغضب ، إذ أن ساعة الغضب ليست لها عقارب أعني ما أقول . وما المدرسة إلا هذه الجزيرة التي تبعد عن الساحل في عمق واتساع البحر ، وتتصل به بجزر طويل ، يعبره الأطفال صباحاً إلى هذه الجزيرة ويمضون على أرضها ساعات قليلة (جداً) يتعلمون أشياء ، وقد يطالبون بسلوك قد يتبع على هذه الجزيرة . ثم يدق جرس ، يهلل له الأطفال والمتعلمون ، ويهتز بهم الجسر وهم يندفعون في شدة الحماس في رحلة الإياب إلى الشاطئ . وعلى الأرض خلف الشاطئ يختلف الحال عن الجزيرة بعد أن خلع المتعلمون الأقنعة ليلبسونها في الغد ، أهي تمثيلية تتكرر ؟ أما ماذا ؟

ويأتي يوم يجلس هؤلاء الأفراد تحت رقابة - المفروض أنها مشددة - للامتحان . وبعضهم يحتاج بضرورتهم الخاصة إلى النش ، فقد تقاعس وتكاسل حتى دهمه الامتحان ، حيث يكرم فيه المرء أو يهان . وينجح البعض فقد تذكروا يوم الامتحان ما استذكروه وبقى في ذاكرتهم ، فاستخدموه فنجحوا . وقد ينسون الكثير ما استذكروه بمجرد تسليم أوراق الإجابة ومن يلدرى ؟

وقد تعبت المدرسة واشتد تعبها من هذه المضايقات والمناورات والإيجامات التي توجهها مؤسسات أخرى ، تعبت بمن فيها وما فيها . . . وعلى سبيل

مثال بسيط صريح - إذا سمحتم لي - هذه الـ (مدرسة المشاغبين) بما فيها من حلول التمثيل والنكتة والموقف . . . على حساب من ؟ ولمصلحة من ؟ سؤالان جديران بالتأمل والتفكير . ثم هذا التمجيد الخارق للاعب كرة القدم واحتياطي الفريق ، على حساب ماذا ؟ ولمصلحة دولة تحاول أن تنهض ؟ . . . وأحمد الله أن صار أخيراً ، وأخيراً جداً جزاءات رادعة على اللاعبين الذين يسيئون لأخلاق الرياضة وبقي أن تقطع السنة المتلفظين بألفاظ نابية قنرة ، أعنى تقطع يعنى تقطع . . . لكن أن نحميهم بأن نبني (كشكاً) زجاجياً حتى يمنع عنا - نحن الذين نتابع المباراة في البيوت - هذا العفن الأخلاقي - هذا يعنى اعترافاً باستمرار هذه المصيبة الأخلاقية . الكلب المسعور نقيده ونضع على وجهه كمامة تقينا منه ، وقد نستبعده .

يجب على الشرطة أن تسهم أكثر إيجابية فيما تحاوله المدارس . ولديها قوة ، وإن لم يكن لديها قوة ، فيجب أن تقوى وتدعم . المنهور بألفاظ قنرة يقبض عليه وبمحاكم ، وخبر كثير أن يقطع اللسان التلذر حتى لا ينمى السنة تشابهه قنارة . وكفانا .

.

وعادت المسبحة مع اهتزاز التاج الفضي على رأس عالم جليل واستكمل حديثه الهادئ العميق . إذن ، فالدروس الخصوصية تلعب دوراً يستشري في العملية التربوية ، ليس فقط في التعليم العام ، ولكن أيضاً في الجامعات وتهدد مبادئ ننادى بها ، فالقادر مالياً له امتياز في تعليم أبنائه . . . وهذا خطأ وخطر . ثم قد نتساءل في واقعية إجرائية ، هل من خير في أن يدفع القادرون مصروفات لأبنائهم وتستخدم لتحسين العملية التعليمية ؟ هل من خير في أن نأخذ من الطالب الذي يرسب مصاريف عن السنة التالية ؟ المسألة ليست عقاباً يوقع على القادر أو على الراسب ، ولكن

المقصود مزيداً من العناية والاهتمام إذ كيف يسمح لطالب الجامعة ، والدولة تعلمه بالمجان أن يهمل ويتكاسل ويتقاعس ويرسب ويرسب . على الدولة أن تتحمل مصروفات الطالب المجد ، لا الفاشل .

وليستمر التعليم الفني بالمجان ، بل وقد يكون خيراً في أن يتحول فعلاً إلى الإنتاج . وقد نقترح أن تكفي المدرسة الصناعية أو الزراعية أو التجارية نفسها بنفسها ، فنتج ويبيع الانتاج ويسوق ، والأرباح تشكل ميزانية المدرسة ، وقد تكون فيها حوافز للمعلمين والإدارة والطلبة .

وقد تعهد بعض المدارس الفنية إلى شركات أو مؤسسات ، وهنا يصير الربط الحقيقي بين المدرسة والبيئة وتسقط جدران العقبات التي طالما أحدثت هذا البعد بينهما . كما نقترح مزيداً من القنوات والفرص التي تتيح أمام خريجي هذه المدارس للدراسات أعلى . ونقترح تدخلاً أكثر فعالية من المسؤولين لتحديد أعداد من يلحقون بالمدارس الثانوية الأكاديمية ، وصولاً إلى تقليل أعداد من يلحقون بالجامعات والمعاهد العليا ، ويتخرجون وقد لا يجدون أعمالاً إلا بعد سنوات . لهذا ، فالاقترح قائم بأن تتوقف الأجهزة المسئولة عن مسئولية تعيين الخريجين ، وقد يصير تفكير جاد في إلغاء تسعيرة الشهادات

إن ما يراه البعض في مكاتب بعض الوزارات والقطاع العام يثير عشرات الأسئلة ، وتتناول الرسوم الساخرة بعض ما يدور في غير قليل من التهكم . ربما موظف واحد يستطيع أن يقوم بمفرده بالعمل وبنجاح . أما إذا كانوا ثلاثة مثلاً ، فربما تتعطل الأعمال أو يتطرق إليها فساد .

إذن فالأمر برمته يتطلب نظرة جديدة تخرج بنا عن القوالب التي عهدناها ، وقد وضعناها ولا أدري ما المانع في أن نغيرها لخير الأفراد وخير المجتمع ؟

ما أكثر ما قاله القوم في كلامهم وكتاباتهم عن روعة انجازات صناعية وعمرانية ، عن مصانع تقام وجسور تمتد ، وانفاق تفتتح باطن الأرض . . . الخ ، وما كانت هذه تتم لو اقتصرت اعتماداتها المالية . ونحن نتعامل تربوياً مع أعز وأعظم وأتمن ما يملكه المجتمع ، نتعامل مع الثروة البشرية ، مع عقول الأطفال والطلبة حيث يبدأ تكوين الاتجاهات والقيم . . . وحيث يكون التعلم ثم إلى سلوك .

يقول المربون إن المدخلات الرخيصة لعمليات التعلم والتعليم تؤدي إلى مخرجات رخيصة أيضاً . ويقولون إن العظمة الحضارية للأمم تظهر وتتجلى في نوع وسياسة ومباني التعليم وتنوعه ومداه . بل ومع كل هذا مكانة المعلم الاجتماعية والاقتصادية . والمعلم المد غالياً عطاؤه من ذهب يتلأأ في جنبات المجتمع وكاد المعلم أن يكون رسولاً .

ثم ألم يقل رفاعة رافع الطهطاوى في كتابه « المرشد الأمين للبنات والبنين » . . . إن خير اناس من يمشى على الأرض المعلمون . وعندما انتصر نابليون بونابرت على بروسيا في معركة بينا ، قرر الفيلسوف الألماني فخته أن يلجأ إلى سلاح التربية حتى يحقق البروسيون النصر على أعدائهم الفرنسيين . وبدئ إعداد الشباب والأطفال إعداداً مغايراً لما كان متبعاً ، حتى نحقق النصر بعد حوالى ثلثى قرن من الهزيمة في بينا . وهنا أعلن بسمارك (السياسى الألماني والرجل الحديدى) ، أن الذى انتصر في حرب السبعين هو « معلم المدرسة » :

وكم نادى رشيد رضا والشيخ محمد عبده بأن إصلاح الأمة يتوقف على اصلاح المدارس .

ما احسن الايمان وفيها هان

وحتى لا يكون حرث في ماء أو نقش على هواه ، نقف ونتمهل
ولا نتعجل ، فأمر التربية يجب أن تؤخذ بالعلمية والموضوعية . ولا بد
من حماس وانفعال غضب ، وغيره لإثارة قضايا يجب أن تثار . والقضية
الهامة هي الأخلاق .

وقف الشيخ محمد عبده أمام كنيسة موريالى القديمة في صقلية معجباً
بجمالها وقدمها ، ويقول « إن العرب رحمهم الله ، لم يمسوا هذه الكنيسة
بسوء مع عظمة سطوتهم ، وامتداد ملكهم في صقلية » ، ثم يتساءل عن
العرب . . . أين هم ؟ ويجب « يمكن أن يقول قائل : إنهم في جزيرة
العرب ، أو في الشام ، أو في العراق ، أو في مصر ، أو في تونس
والجزائر ، أو في المغرب الأقصى . . . ألم يكفك كل هذا العدد في أكثر
من ألف بلد ، حتى تقول أين هم ؟ ولكن أقول له : إنما يكون القوم
أولئك القوم ، إذا بقيت لهم أخلاقهم وحياء أرواحهم ، فإذا كان لم تبق
صوى أشباح تشبه أشباحهم ، فليسوا منهم ، ولي الحق أن أقول عن
العرب : أين هم ؟ »

« أما قومي فأبعدهم عني ، أشد قرباً مني ، وما أبعد الإنصاف منهم
. . . يظنون بي الظنون ، بل يتربصون بي ريب المنون ، تسرعاً منهم
في الأحكام ، وذهاباً مع الأوهام ، وولعاً بكثرة الكلام ، وتلذذاً بلوك
الملام . أقول فلا يسمعون وأدعو فلا يستجيبون ، وأعمل فلا يهتدون ،
وأريهم مصالحهم فلا يبصرون . وأضع أيديهم عليها فلا يحسون ، بل
يفرون إلى حيث يهلكون ، شأنهم الصباح والعويل ، والصخب والتهويل ،
حتى إذا جاء حين العمل صدق فيهم قول القائل في مثلهم .

(م ١٢ - طفل غاضب)

لكن قومي وإن كانوا ذوى عدد ليسوا من الشر في شيء وإن هانا
وأقول :.. ولا من الخير

* * *

ويدور الحديث جاداً عن التربية الدينية ، وهذا خير كبير ، ولكن
أخذ المسائل بالكم إن لم يكن شراً فهو ليس بخير . الدين المعاملة ، والسلوك
الخالق هو ما نريده ونصبو إليه . وفي رأى بعض المربين أن القيم الإيمانية
لن تتكون بمجرد زيادة عدد حصص التربية الدينية في المدارس من الصف
الأول الابتدائي إلى السنة النهائية في الكليات والمعاهد العليا . ولا شك أنه
أمر جميل ومقبول جداً أن تكون مقررات التربية الدينية مقررات
أساسية ولها أهميتها ، ولكن الأجل كيف تكون هل يحفظ التلاميذ
معلومات دينية على ظهر القلب ثم يجلسون في نهاية كل عام دراسي ليمروا
في نفس الخبرة الامتحانية كبقية المواد ؟ الأمر يتطلب وقفة تفكيرية
صريحة ، قد تعجب البعض وقد لا تعجب غيرهم :

للتساؤل : هل معرفة الفضيلة تعنى بالضرورة سلوكاً فاضلاً ؟ أعنى
هل معرفة فرد ما أن السرقة حرام تؤدي إلى امتناعه عن السرقة ؟ المعرفة
خطوة أولى وضرورية لتكوين اتجاه أو قيمة . وما أيسر هذه الخطوة .
والمساجد والكنائس تعظ الناس ، ومنذ قرون طويلة مضت ، بل يتعلم
الأطفال منذ الصف الأول الابتدائي أصول دينهم ، وفي تدرج . والنتيجة
مائلة أمام أعيننا . ربما الأمر يذكرني بحصة اللغة العربية حيث يحافظ
التلاميذ قدر استطاعتهم على ما تفعله كان واخواتها في المبتدأ والخبر
وكيف تجر الأسماء جراً بعد حروف معينة ، لكن في بقيه الحصص فتسحب
سلطات كان واخواتها وإن واخواتها ، وترفض تلك الحروف المعينة جر
أى اسم مهما كان !!

القضية إذن أعمق من دروس في التربية الدينية ، إنها تتعلق بمناخ أشمل وأكثر إحاطة ، إذ لا يسعد المرين نظام الامتحانات بصورته الراهنة كإجراء لتقييم التلاميذ ، ولهم في هذا كلام كثير . والاتجاه إلى أن انتقيم عملية مسعرة لا تقتصر فقط على الجانب المعرفي في عملية التعليم . هذا يعني أن السلوك الأخلاق في تقييمه له معايير وإجراءات أخرى إلى جانب قياس الكم المعرفي الذي يحصله التلاميذ ويسألون فيه شفويًا أو تحريريًا .

كما يرى جمهرة المرين في إصرار حاسم حازم أن القدوة الحسنة يجب أن تكون ركيزة أساسية في التربية الدينية ، كما أن متابعة السلوك تشكل جانباً حيويًا في هذه العملية التربوية . وأرجو أن تسمحوا لي باقتباس فقرات جاءت في مقال كتبه الدكتور عماد عبد الحليم النجار بعنوان « تعالوا . . نفهم الإسلام » ونشر بجريدة الأخبار يوم ١٨ - ١١ - ١٩٧٩ والكاتب كتب تحت عنوان فرعى (ما . . الإسلام ؟)

« الإسلام في كلمة موجزة هو النور الذي يسيطر على ذات المؤمن فيدفعه إلى الخير ويبعده عن الشر ، وهو الحكومة الذاتية المسيطرة تبصره بالخير وتدفعه إليه وتكشف له الشر وتدفعه عنه .

وأول ما يعترز به الإسلام هو التوحيد باعتباره ركن الإسلام الأول . وعلينا أن نلقى في كل يوم نوراً وضياء من الأسانيد لدعم التوحيد فهو ركن الإسلام الركين ولا يقوم إلا به ، ونعتقد أن التوحيد غير مجلو لدى المسلمين أو غالبينهم في هذا الزمان . ولو سيطر على الوجدان والعقل والعاطفة لما كانت هذه المواقف سائدة في المجتمع .

فالمؤمن الحق الذي يستشعر الله الواحد القهار في نفسه وفي كل لحظة

قلما يقع في الخطايا ، وهو لا يرتكبها وهو مؤمن ، ولا يستولى عليه خوف من سلطان أو بطش من طاغية لأنه يؤمن بأن الكحل عبيد الله فلا يهادن ولا يوارى ولا يداهن من أجل نفع أو مصلحة . لأن الأمور تسير بقدره الله ومشيئته .

- وهكذا يكبر الناس في ذواتهم ويستعلون على الرذائل ويتجنبون الدنيا . . لذا يجب التركيز على هذا المبدأ الأساسي في الإسلام . . والصوم والصلاة والزكاة والحج دعائم لتحريك هذا الجوهر الأصيل في الإسلام وهو الجوهر المحارب في هذا الزمان بالشرك والإلحاد اللذين تثيرهما شيوعية هذا الزمان .

ومن ثم وجب التركيز على الإسلام في هذا الجوهر الأصيل وألا يختلف حول تفصيلات وتفريعات ، أما صلب الإسلام وجوهه فهو للتوحيد وهو الإيمان بآله واحد تتمثل صفاته في صفات الله المعروفة في كتابه وعلى المؤمنين الأخذ بها ما استطاعوا لينصلح حالهم .

أما عن الدعوة إلى الإسلام فواجب أن تركز حول هذه الغاية . . غاية التوحيد والبعد عن التفاصيل التي يختلف الناس فيها ولا أهمية للإدلاء فيها برأى دون آخر ، أما أسلوبها فيجب أن يعاد النظر فيه .

فحديث علماء الدين أصبح متكررا معادا لا يستحسنه الشباب ولا يتأثرون به وهم على حق في الضجر والميل عن هذه الأساليب في الدعوة إلى الإسلام . . لأن العصر الذي نعيشه الآن لم يعد يجدى فيه الاقتناع بمجرد ذكر الآيات وإظهار ما فيها من بيان وبديع واستعارة وتشبيه ، أو تناول ألوان الثواب والعقاب في الآخرة . . لما في ذلك من قفز إلى النتيجة دون حديث عن المقدمات . . لأنه عصر مادي وقد حقق العلم فيه إنجازات رائعة . . ومن حق الشباب الاستماع إلى دعوة الإسلام عن طريق هذا الاقتناع العلمي الذي يشفي القلوب والوجدان ويرضى العقل والمنطق .

يجب أن نتخذ من هذه الانجازات العلمية أدلة تدعم الدين وتثبت ما دامت صحتها قد استقرت ورسخت . والاقناع بهذه العلوم والمطرف بات ضرورة عصرية وحقيقة لا سبيل إلى البعد عنها . . . والقرآن ذاته يفرض ذلك ويأمر به . . . فالقرآن ستة آلاف آية منها خمسمائة تبحث في الأحكام وأقل من نصف هذه الآيات الأخيرة يبحث شئون التشريع والفقه والباقي حوالى أربعة آلاف تتحدث عن التوحيد ومخاطب العقل وتفكر وتدعو إلى استنباط الحقائق العلمية . . فكيف تعمل الاسلام بجزء منه دون أجزائه الأخرى ؟ وهو ما نهى الله عباده عنه ليس فقط بعدم الإيمان ببعض الكتاب والإيمان ببعضه بل بإهمال البعض والاهتمام بالبعض الآخر؛ وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى على لسان نبيه شاكيا مسلك عباده (يا رب إن قومي أتخذوا هذا القرآن مهجورا) وهو شأننا في هذا الزمان حيث نهجر ثلثي القرآن ونعمل بثلثه الآخرون ثم وجب على الدعوة إلى الاسلام أن يتخذوا من الانجازات العلمية سداً للدين ودعوة إلى العلم والعمل والتقدم والازدهار .

عليهم أن يتزودوا بهذه المعارف أو يستعينوا بالخبراء فيها برددون معهم آيات الله كفرين ينبر سبيل الحق ويدعو إلى الرشاد وائس تردبداً لبعض الآيات والأحاديث . حين يعلمون الصلاة والصوم والحج والزكاة وهى بالطبع أساسية - إنما يجب إلى جانبها الدعوة إلى الإحاطة بالعلم في كل نواحي الحياة من فلك وطب . وهندسة واقتصاد واجتماع ونبات وحيوان وتعلمين وصناعة وغيرها واعتبار ذلك كله فريضة دينية .

وحسبنا الاختلاف والتناحر حول تفصيلات لا تمس جوهر الاسلام وهى ليست سوى قشور على سطحه - وبهذا نخدم الاسلام ونعظم به ونصبح جدبرين بالانتهاء إليه خلقين بالعيش في ظله . . .

تؤدي التربية الدينية إلى وضع الفرد على الطريق القويم السليم حتى يكون بحق مخلوقاً في أكل صورة متبعاً الحق نائياً عن الباطل . هو إذن فرد يتعامل مع نفسه ومع غيره سرّاً وعلانية ، يريد رضا الله عز وجل . ويتطلب هذا أموراً ثلاث :

- المعرفة بأصول وقواعد الدين ، وتعطى له المعرفة أولاً بسيطة يهضمها عقل المتعلم ، ثم تزداد إتساعاً وعمقاً مع تدرجه في مراحل نموه الزمني والعقلي وهنا يجب أن تشترك مؤسسات أخرى معاونة المدرسة في عملها ، ويجب أن يكون هناك تفاهم وتعاون بين مختلف الأوساط التي تؤثر في تربية الأفراد .

- وجود القدوة الحسنة في البيت وفي المدرسة وفي المجتمع . وهذا موضوع يحتاج في دراسته إلى جهد ووقت وإخلاص يبذل من قبل الأفراد المعنيين . والأمثلة صارخة في المجتمع والمدرسة والبيت وهي تضع أطفالنا في حيرة وجدانية تكاد تؤذيهم ، أو تؤذي الكثيرين منهم . إذ قد يقتنع الطفل بما يقدم له في المدرسة ، ثم يرى ما حوله يكاد يعصف بما تعلمه واقتنع به إن نظرة إلى الشارع وما فيه تثير الأسى والحزن والألم عند من لديهم الوعي الصادق بما يجب أن يكون عليه سلوك المواطن . والرأي أن موضوع القدوة الحسنة يتطلب دراسات تربوية واجتماعية ونفسية ودينية كثيرة ، ويفضل أن تكون على مستوى العمل الجمعي . وقد يرى البعض أن نتائج الدراسات معروفة مسبقاً ، وقد يكون بعض الحق معهم . ولكن نأمل أن يكون هناك تخطيط مبنى على نتائج دراسات علمية ، وفي الغالب سوف تكون له فعاليات ونتائج أكثر .

- السلطة التي تتابع سلوك وتثيب وتعاقب ، وتمدح وتذم ، وتردع المنحرف وتؤدب المخالف . إذ قد تكون بعض الأحكام القضائية التي

توقع على بعض المنحرفين لا تناسب مطلقاً مع الأضرار الجسيمة والنفسية والمادية والاجتماعية التي تقع على أفراد المجتمع . الخطر هنا أن العقاب الهين يشجع على اقتراف الخطأ ، وقد لا يضبط المخطيء وينجو بما فعل ناهيك عن مخالفات المرور مثلاً وعتوباتها أو هي ذاتها تمحى بمجاملة أو استحياء أو خوفاً من غضب ما وجود هذا وغيره يؤدي منطقياً وعملياً إلى تصدع في احترام الناس للقانون وتنفيذه . أعجبتني « فكرة » للصحفي الكبير الأستاذ مصطفى أمين في هذا الموضوع وردت بجريدة الأخبار بتاريخ ١٦ - ١ - ١٩٨٠ ، وأرجو أن نقلها كما هي . . . يقول

متى يعود للخط الأبيض احترامه في بلادنا ؟

هذا الخط الذي كان يرسمه المرور في شوارعنا فتتوقف عنده السيارات ولا تجتازه . فإذا حدث وداست عليه عجلة السيارة اعتبرنا هذا مخالفة واعتداء على القانون !

لم يعد للخط الأبيض المرسوم بالدوكو أى احترام . ولم يعد المرور يكلف نفسه بالرسم بالدوكو توفيراً للوقت والجهد وثنم الطلاب وأصبحت علامات المرور الكهربائية تعكس المقصود منها . إذا احمرت تحركت للسيارات ، وإذا اخضرت توقفت السيارات ، وإذا اسودت اختلط الحابل بالنابل !

وأصبحت المدن في بلادنا اعلاناً دائماً على استهتارنا بالمواطن المسكين الذى لا يملك سيارة ولا يستطيع أن يركب الأوتوبيس . . . في أى بلد في العالم تجد المارة يمشون في وسط الطريق ، بينما الرصيف قد خصص لتقف عليه السيارات ، أو انصف فوqe الموائد والمقاعد ، أو لتزدحم فيه أكوام

البضائع ! ونحن نتفنن في تضييق الأرصفة في بلادنا بينما العالم يتجه إلى توسيع الأرصفة .

في الشارع الخامس في نيويورك نجد أن عرض الرصيف الذى يمشى عليه المارة أكبر من عرض الشارع الذى تمشى فيه السيارات والأتوبيسات !

ونظن أن الوقت قد حان لتعيد الاحترام للشارع المصرى . إن السيارات تعتمد أن تقف في وسط الشارع فتخلق الطريق ، وتعطل المرور ، وتضاعف متاعب أصحاب المصالح وتحرق أعصابهم . سيارة واحدة تقف في منتصف الشارع لينزل منها راكب أو ليركب فيها راكب ، ونتيجة لهذا تتوقف مائة سيارة خلفها لا تستطيع المرور . ذلك لأن راكب السيارة يعتقد أنه صاحب الشارع ، وأنه يمتلك كل شرفيه وأنه اشتراه بماله ، أو ورثه عن المرحوم أبيه ، وهو من أجل ذلك حرقف بسيارته كيف يشاء ، ويزحم الطريق كما يشاء ، ويعطل المواصلات في المدينة كلها ، ولا يهمه إذا كان يوتف طبييا في طريقه لاسعاف مريض أو سيارة مطافى تعدو لإخاد حريق !

يمكن تعيين مائة كونستابل جديد . يشترط فيهم الأمانة وحسن التصرف مهمتهم أن يحالفوا كل سيارة تخالف نظام المرور . أو تقف في الطريق الممنوع . ويتقاضى الغرامة فوراً كما يحدث في كثير من بلاد العالم . وعلى المعارض أن يذهب إلى محكمة للمرور تتعقد ليل نهار وتبت في القضية في الحال . إن الحصيلة من هذه المخالفات ممكن أن تبنى بيوتا للذين لا يجدون لهم مأوى !

ان بعض سيارات الأوتوبس الآن تذكرنا بقطار السكك الحديدية الضيقة في قرانا منذ خمسين عاما ! كان السائق يوقف القطار ليتناول

الافطار . أو يمر على قرية فيها ميت فينزل بها ليقدم العزاء . أو يرى فرحا في الطريق فيوقف التطار وينزل ليرقص عشرة بلدى في الزفة ! إننى رأيت أوتوبيسات فى بعض المدن يقف سائقوها بالركاب ليشتري فولا مدمسا أو يأخذ تعميرة أو ليدخل قافية مع بائع من أصدقائه فى الطريق . . ورأيت أوتوبيسا يصعد على الرصيف ليعاكس حسناء !

يجب أن نعيد للطرق احترامها . ويجب أن نعرف أن الذين يمشون على أقدامهم من حقهم أن يشعروا أن لهم احترامهم وأن لهم مكانهم وأن لإرغامى على أن أمشى فى وسط الشارع هو مساواة بين الآدى واللواب اتى تمشى فى وسط الشارع . .

اعيدوا للشارع احترامه . .

ومن هنا يبدأ احترام القانون !

• • •

لا نفتأ نسمع ونرى ما يقال ويكتب عن السلوك الأخلاقى فى المجتمع ، ومعظمنا لا يعجبه الحال ويكتفى بالقاء للسؤال تلو السؤال . هل يمكن أن نطلب تنفيذاً دقيقاً واعياً شجاعاً للقانون فى الشارع وبعقوبات رادعة ؟ ربما بتعلم الأفراد خوفاً له روعته ، هو الخوف من القانون وسطوته . ربما انساب هذا الخوف إلى آفاق ومجالات أخرى .

هل نطمع فى طموح أن يكون هدفاً من أهداف التربية زرع أو تكوين هذا الخوف كانهما هم يؤثر فى سلوك الأفراد . خوف من الله فلا نعمل لغضبه ولكن نسلك لرضائه ، خوف من المرض فلا نهمل فى صحتنا ، خوف من العار . . . خوف من الفشل . . . بل خوف من غضب المجتمع . . الخ . هذه أنواع من الخوف مطلوبة حتى يكون هناك انضباط للفرد مع نفسه ،

وانضباط في سلوكه في المجتمع . والخوف يتأني بعد قناعة سليمة تمتلك عقل الفرد ووجدانه ويعيشها ويتمثلها في كل التفهم والصدق . . . وهنا يزول انفعال الخوف إلى رغبة صادقة وعزم على السلوك الصحيح .

إن البناء الرصين للمجتمع يبدأ ببناء الإنسان أولاً ، وبذور هذا البناء في داخل الأفراد . وإلى هذا الداخل تتجه كل المحاولات ، ويقول ميثاق الليونسكو . . . إن الحروب تبدأ في عقول الأفراد . إلى العقول توجه المجهودات لتكون عواطف معينة خيره ، وتهذب انفعالات لتكون هادبة للسلوك القويم والعمل الصالح . قد نلجأ إلى ما لجأت إليه الصين مثلاً بتطبيق فوري للمخالف أو المنحرف ويعاقب ، ويعاقب من يعاقب ويتاب من يتاب والسؤال : من يراقب من ؟

أليس من المؤلم المؤسف أن مشروعات نصرف عليها عشرات الملايين ثم يتطرق إليها الفساد لفساد في أخلاق بعض العاملين بها . هؤلاء قتلهم وسفاحون لأنهم يقتلن نطلعات المسؤولين والشعب ، ويوقفون عجلة التقدم ومنهم كثيرون يهربون بجرانهم البشعة . ونسمع ونقرأ عن الرشاويح والسرقات من المال العام ، وحرية الصحافة وحرية القلم - والله الحمد - توقفنا على بعض الانحرافات ونتحسر ، إذ أن بعض المنحرفين يحملون أعلى المؤهلات . هل صار انفصال إذن بين تعليم عالٍ ، وعلى أعلى الدرجات ، والأخلاق . حفنة قليلة كتفاحة معطبة تفسد كل التفاح في السلة .

يجب أن تكون هناك الرقابة المؤتمنة الجادة ، فالمنحرفون فقدوا صلاتهم بالقانون الإلهي ، وهم بهذا ليسوا أهلاً للحياة في مجتمع يحاول بكل ما يستطيع أن يتقدم وسوف يتقدم .

إذن ، فهو هدف من أسمى أهداف التربية إيمان الفرد بالخلق القويم

والتعامل السليم مع نفسه ومع غيره . كل شيء - وأكرر كل شيء -
في المدرسة بالذات يجب أن يتجه إلى تحقيق هذا الهدف . بل لا يرتبط
الخلق القويم بمستوى اجتماعي أو اقتصادي أو بمنصب . وإذا صار تعليم
الزماي متحقق ، في أي عدد من السنوات ، فيجب أن يكون هذا الهدف
رائده ، سدانه ولحمته . نور الهادي .

• • •

تثمر التربية الدينية السليمة وتؤتي أكلها عندما يشعر الفرد داخلياً بالألم
عندما يخطئ حتى ولو لم يره أحد . الوازع الداخلي هو حجر الزاوية
ولا بد من العقاب الصارم للمخطئ والمخالف ، قانون يسرى على الجميع
دون استثناء . الاستثناءات هي الطريق السلطاني للفوضى .

أعود وأكرر أنني إذا طالبت بتنمية الخوف من الله والعقوبات ، فإن
القصد الأول والهام هو في المراحل الأولى والبدائيات حيث يكون الاقتناع
ليس ملزماً للسلوك ، ولكن التجارب والخبرات تعزز وتقوى الاقتناع
الذي كان على المستوى النظري والذي عززه التطبيق العملي الواقعي في حياة
الفرد في المجتمع . عندئذ يصبح السلوك السليم جزءاً من نسيج تكوين
الفرد . عندئذ يسلك الفرد لأنه اقتنع نظرياً وعملياً . ما أروع أن نجد
أفراداً يسلكون الحق والسليم لمجرد الاقتناع النظري بل ربما تكون
هذه فاتحة خير ، ويكون هذا هدفاً سامياً للتربية . . . وهنا ينزوي الخوف
. . . لكن متى وكيف يحدث هذا ؟

قد تكون العلاقة غريبة بعض الشيء بين انفعال الخوف ومفهوم
الحرية . الحرية تعني أن يفعل الفرد ما يريد شريطة ألا يتعدى على حريات
الآخرين . أنا حر في الاستماع للمذيع في بيتي ، هذا حق لي ، ولكن إذا

كان صوته عالياً يتسلل إلى حجرة جارى ويقلق نومه ، فهذا تعدد على حريته . والخلق السليم يدفعني إلى الخوف من اقلق راحة جارى . الحرية كلمه ، مفهوم ، مدرك ، حق خلق الله الناس احراراً . ولكن الحرية المطلقة دون ضوابط فيها خطر . فأنت حر ، ولكن عليك أن تخاف الجور على حريات الغير ، لأنك لا تريد أحداً يجور على حريتك أنت . وأنت حر في تعاملك مع الغير ، ولكن للغير أيضاً حقوق يجب أن يخضع تعاملك معهم لهذه الحقوق . وعامل الناس بما يجب أن يعاملوك به . يبدأ هذا المفهوم ينمو في البيت وفي المدرسة حتى يخرج الأفراد إلى المجتمع واعين لمعنى الحرية .

وهذا أيضاً هدف هام من أهداف التربية . . . يجب أن تدعو إليه مختلف أوساطها وخاصة المدرسة التي عليها أن ترسخه في قوة .

لتكن هناك مئات من حصص التربية الدينية ومحاضراتها ، وامتحانات ، وسوف يحفظ المتعلمون ما يعطى لهم على ظهر القلب . ولكن المعرفة سهل الحصول عليها ، والمطلوب هو السلوك ، وهذا شيء أساسي ، بل هو المحصلة المطلوبة . وأسأل في حرية : ألا يعرف كل من يغش في الامتحان أنه يسلك خطأ ، وان العقاب ينتظره ؟ نعم ، وقد لا نعجب كثيراً إذا غش بعض الطلاب في امتحانات التربية الدينية التحريرية .

مع التمهل والتعمق يحدونا الأمل في أن يتدارس المسئولون أساليب أخرى لتربية الأفراد دينياً ، فإن من فرط بعد غالبية أبنائنا عن الدين أسوا أشجاراً يبست أغصانها وأوراقها ، تتلاعب بها الرياح ، وهي لا حول لها ولا قوة . . . فقد افتقدت أمان الإيمان .

ودون التعرض لحساسيات البعض من علماء الدين ، وحماسهم شديد ، وورغباتهم عزيزة ، يجب أن يكون هناك حوار بناء يشترك معهم آخرون ممن

يهمهم الأمر . ومن يهمهم الأمر يتنون إلى تخصصات عدة قد لا تكون لها صلة مباشرة بالتربية كما نعهدها في معناها المألوف في المدارس وأحياناً قليلة خارجها . إن لرجل القانون قولاً هذا ، وإن للشرطة قولاً . كما أن جهاز الرياضة مشغول وله قول وغيرهم كثيرون . إذن فلتتمتع الأيادي متصافحة لخير أطفالنا وشبابنا ولخير بلدنا .

إن هدفاً بناء من أهداف التربية يجب أن يتجه لمواجهة التحدي الإلحادي ، وإضعاف الإيمان بالله . وقد يأخذ هذا التحدي صوراً شتى متخفياً وراء شعارات خادعة أو مرتدياً أزياء زائفة ، ملمحاً وواعداً بأمنيات معسولة . إن الدين المتمكن في قلب المؤمن صخرة أعتى وأقوى من أشد الرياح ، فتهب دون أن تحرك الصخرة قيد أنملة .

يتطلب هذا التكوين الإيماني عند الأفراد ، وترسخ القيم الروحية عند النشء بتضافر كل الأنشطة التربوية في المدرسة . كل درس هو في الأصل درس أخلاق ثم تأتي المادة العلمية وكيفية حصول المتعلم عليها . وفي البداية بالبواكير بركة وخير . والتساهل في مراحل التعليم الأولى في البيت ثم في المدرسة عواقبه غير طيبة . لا أقول إن التعليم في الصغر كالتنش على الحجر . . . لا ، ولكن ما أعنيه أن طبيعة الطفولة في مروتها تساعد على تكوين الاتجاهات والقيم . . . لهذا صار إهتمام كبير وكبير جداً بمرحلة ما قبل المدرسة الابتدائية في الدول الرأسمالية والشيوعية .

وكان في مصر - أيام زمان - حور حضانة ورياض الأطفال . وأغلقت أبوابها ، ربما خوفاً من غضب ديموقراطية التعليم وتكافؤ الفرص . أو لأسباب أخرى . . . وهذا موضوع آخر .

الإيمان بالله وطاعته يزكيان النفس ، ويهدي إلى راحة ما أجلها وما أنبلها وما أجلها .

ساعيشا رحيقا الدنيا.

أيام مرت . . . :

وانصلت بي شوق قائلة إن أزمة صحية (خفيفة) ألمت بأحمد وأن أحد الجيران أحضر له طبيباً طمأنهم عليه . ربما كان أثراً جانبياً طفيفاً من أثر الحادثة . . . وأعطاه حقنة مخدرة . . . ونام أحمد . ربما ما حدث لأحمد في غيابي عنه كنت أعرف أطرافاً منه ، أو هذا ما خيل إلي :

لكنني أذكر سيولاً تهطل من السماء تروي أرضاً واسعة تشقت من كثرة لهفتها على ما يرونها ، وهي تشتاق إلى البذور تنميتها في أحشائها بعد أن جاءها الغيث ، وتلثم الشقوق وتكسو الأرض دموع الشكر ، ويزول وجهها الجامد الكشر ، ويحل وجهه باسم رطب .

وأذكر أحمد وقد نام من تأثير المخدر ، وهو حائر بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية ، فإن خواطر كثيرة تلح عليه أن العود أحمد ، وأن عليه أن يعود كله إلى مصر وهي الآن تحاول أن تسابق الزمن وتطوى مسافات شامعة من التخلف . أحس هذا الصراع الفكري الوجداني في رأس أحمد . . . ربما حدثني به مرة أو أكثر ، وهو - كما قلت - صراعه هو ، ويجب أن يقرر عن قناعة ، وقراره قد لا تكون رجعة فيه ، فقد بلغ من السن كبراً ، وقد يصير تغيير كبير مرة ولكن مرتين ؟ هذا أمر جد صعب

وأذكر أنني لمحت الرجل الغامض وهو واقف عند رأس أحمد
قسيمات وجهه ضبابية - ولكن كل وجهه يتسم هادئاً ، وما زال الطربوش

يغطي رأسه ، وما زال دائم الصمت . هو صمت حلو محير . ويحاول أحمد أن يتسلل بعينه إلى وجه الرجل الغامض ، لكن عضلات رقبتة لا تساعد . وكانت القمطة الساذجة تتطلع إليه متعجبة لفشله في عملية بسيطة كهذه تستطيعها هي بكل سهولة .

إذن فهي مرة أخرى أشارك أحمد أفكاره هذا حس . وانطلقت بعد حديث شوق في طريقي إلى حيث يعيش أحمد مع عائلته ، ومعى اثنان من أقاربى فتى وفتاة أنهما دراستهما الجامعية منذ عدة أشهر . أجبني الشاب بعد سؤالى له : - بل أنا جالس بالبيت - انتظر . . . لو كنت فتاة لقلت انتظر شيئاً آخر

استقنا أحده وهو يقول . . . كانت سحابة صيف سرعان ما انقشعت ، والله الحمد . وجلسنا بعد التعارف وجاءت شوق وسألت الشابة والشاب ، وقالت :

ربما لو استقر بنا المقام هنا قد أفكر في استخدام ما تعلمته في مشروع ، ولدنيا المال . . . تبقى القوى البشرية . . . والمكان . . . هو مشروع عن إنشاء دور حضانة ورياض أطفال . . . هنا في مصر الجديدة وقد تنتشر ، وأعلم أن مجهودات بذلت ، ولكن (المرشدات) - أعنى المدرسات للصالحات للتعامل مع صغار الأطفال نادرات . لذلك فقد أبدأ بإعداد عدد منهن في نفس الوقت الذى يعد فيه المكان المناسب . إن تطور المجتمع يحتم وجود هذه الدور ، ويدفع أولياء الأمور مصاريف ليست كبيرة مطلقاً ، وقد تسهم وزارات وهيئات في المصاريف . أما العائد فهو كبير ، فإن الأم الآمنة على طفلها أثناء عملها سوف تؤدي عملها بمجدية أكثر ، وكذلك الوالد . الانتاج هو الرابع ؛ وهؤلاء الأطفال هم رجال المستقبل .

قد ترسل للدولة بعضاً من خريجات الجامعة في بعثات قصيرة إلى الخارج

ليدرسوا ويتدربوا على العمل في دور الحضانة ورياض الأطفال
أرى الأخت تبتم ، ربما دهشة ؟ . . . ربما تأففاً ؟ إذ كيف تقبل خريجة
الجامعة أن تعمل مع أطفال . . . لم يصلوا حتى إلى مستوى التعليم الابتدائي ؟

تدخل أحمد ، وهو يعرف ماذا تعنى شوق . أما أنا فكان لكلماتها
أثراً دق أجراساً مدوية في رأسي ، فها هي شرق زميلتنا العزيزة في مدرجات
الجامعة منذ ربع قرن ، وهي الآن المصرية / الأمريكية التي نحمل أعلى
المؤهلات العلمية ، وتعرفها الجامعات في الخارج . . . وكما عهدناها
في حماسها وعزتها واخلاصها تدعو إلى عمل ما أحوج مصر إليه
قال أحمد

شوق على حق . . . وكنت انظر إلى اختنا الشابة ، فهي لم تتأفف
ولم تستنكر ولكن وجهها يعبر عن تعجب ، إذ ما قالته شوق يمس بعض
قيم مجتمعا ، وبعضها يجب أن يتغير إذا اعترفنا بأن العمل شرف ، وأن
العمل عبادة . نعرف صديقة لنا هناك في الخارج ، راتبها السنوي لا يقل
عن راتبى إلا قليلاً جداً وتحمل مؤهلات عليا مرموقة ، وهي مدرسة
للصف الثالث الابتدائي . . . وهي فخورة بهذا ، وأفراد مجتمعها الصغير
يضعونها في الصدارة ، وفي المجتمع الكبير لها كل التقدير . وتأنيها في أعياد
الميلاد بطاقات المعايدة ممن علمتهم وهم أطفال ولهم مناصب وإدارة . . .
ويذكرون فضلها عليهم . وما أكثر من يكتبون إليها معترفين بفضلها
فما كونهت فيهم من عادات واتجاهات وقيم . . . لا أقول من علمنى حرفاً
صرت له عبداً ، هذا قول مبالغ فيه شكلاً ، ولكن مضمونه عظيم
. . ضاع في غمار (المدينة والمدنية) .

وليست شوق رائدة في هذا المجال ، ففي مصر الكثيرات ممن سبقتها ،
وفيهن خير كبير ، ومنتظر عطاء أكبر . إذ أن مرحلة ما قبل التعليم الابتدائي

مرحلة لها أهميتها القصوى في وقت أصبحت مؤثرات كثيرة تتدخل في إعطاء أطفالنا غير القليل من الأفكار ، وبعضها ضار .

واستأذنكم - إذا سمحتم لي - ومعنا شاب وفتاة ، مثل الورد ، هم اثنان من عشرات الآلاف من الشباب الذين تخرجوا في الجماعات والمعاهد العليا ، ومعهم أيضا عشرات الآلاف من شبانا يضعون صيغهم في فراغ تسكمي ، وأرض مصر أصفرها وخضرها تن متضرعة إلى عقولهم وإلى سواعدهم القوية . كيف لا يتحرك المجتمع بإيجابية أكثر ليستفيد من هذه القوة البشرية ونحن نخوض معركة شرسة مضمية مع التخلف بصوره الثقافية والمادية والإيمائية ؟

الملل آفة نفسية إذا تسربت إلى فرد متطلع ولا يجد ما يفعله ويفذى ذاته فتتوقع منه ما لا نرضى ، وتتحكم الظروف في أحواله ، في نظراته ، في سلوكه ، فيما يجيش بصدرة هكذا عملته الظروف . والمجتمع قادر على أن يعيد تشكيله ، بل يشكله في الأصل . إذ يعيش بعض أبنائنا فترة زمنية حتى تعينهم القوى العاملة ، وبضهم أو جلهم يمضى سنة في الخدمة العامة . وفي هذه الخدمة العامة أقوال كثيرة . ربما بحث علمي يلقي أضواء على ما يدور ويجرى .

إن التعميم الجامع المانع علمياً غير جائز إلا بعد دراسات علمية يجب أن تبحث في هذه الخدمة العامة . ولكن المنطق يصيح غاضباً - إلى جانب طفلنا الغاضب - طالباً أعمالاً أكثر إثماراً تستغل فيها هذه الطاقات العقلية والجسمية لعشرات الآلاف في أعمال يحتاجها المجتمع ، بعد تدريب لا يستغرق إلا أسابيع أقل في عددها من أصابع يد واحدة !!

إن في تجارب بعض الدول التي أصيبت بنكبات بعد حروب طاحنة مدمرة ، أو كوارث مهلكة ما يمكن أن يفيدنا فوائد جمة . ولكن أعود

(م ١٣ - طفل غاضب)

فأقول إن الكثيرين منا يفضلون عدم المجازفة ، إذ في الأمور اليسيرة غير المفيدة أمان من خطأ أو عدم رغبة في بذل جهد وفي نهاية الشهر يقبض كل مرتبه وبأدار ما دخلك شر . أبدأ أبدأ . . . لا يجب أن يكون هذا واقع مجتمعنا . أتكلم من منطلق الواقعية .

لست أدري ماذا أقول والأمور واضحة في وهج الشمس ، وعندنا من الكفاءات المخططة ما تكفي منقطة الشرق الأوسط ، وأكثر وأكثر . ثم عندنا - والله الحمد - مشكلة الأمية المزمنة ، وربما تتفاقم وتزايد ، بل وهناك مشكلات أخرى تعرفها جيداً بعض الوزارات حق المعرفة . ثم . . . أمامنا شباب يتفجر حيوية وعلماً . . . عرفنا بعضهم أفراد الصاعقة ، عاشوا الصحراء بقسوتها لا يكادوا يجدون الأديم في مهماتهم المقدسة ، وتحقق أسنانهم أعشاب الصحراء وتنبش أظفارهم بحثاً عن الماء تحت شمس محرقة أو رياح لا ترحم في صقيعها . واليوم تغضب قوة الشباب وهي تبحث لاهثة عن توجيهات رشيدة لأعمال تبني مصرنا كلنا .

هذه النفوس والأجسام والعقول التي تكاد تتمزق ، وتشتاق العمل ، هي لا تحتاج إلى عملة صعبة ، هذه الحججة التي ربما أصبحت واهنة ، ولكنها تحتاج إلى قوة موجهة واعية مدركة وقادرة على بذل الجهد حتى تشير إلى مواقع العمل الفعال المؤثر . حرام ، وخطأ كبير أن يترك عشرات الآلاف من شبابنا في أحلى سنى العمر تعصف بهم رياح إلى دوامة الخيرة وأرض مصرهم العزيزة في شوق إليهم ، ونهم ، تستجد بهم أن تعالوا أن لكم في خيراً وفيراً ربما هم لا يعرفون الطريق وبأياها الفلك على وعلك للرحيل . . . قف تمهل .

كم من نفوس تقتل وهي تستقبل رحيق الحياة في معترك الحياة ، ثم هل من لوم إذا صار غضب على المجتمع ، أو اندفاع مجنون إلى أرض

أخرى حيث المال وفير والجهد غير كبير ؟ وللأسف الشديد فإن البعض ممن في يدهم جزء من الأمر ينبرون في كل حماس الاخلاص ، يحاولون عمل شيء ... ويقول قائل : يعنى هل ستصلح الكون يا أخى ؟

هى سلبية ولا مبالاه يراها الشباب ويحسها . وربما تخرج شباب من مدارس ثانوية (بأنواعها) ومن جامعات ومعاهد عليا وفيهم حماس وآمال عظام . ثم شيئاً فشيئاً تبدأ الشعلة تحبى ... ثم تنطفئ . هذا زلزال يهز المجتمع المتطلع للتقدم ، إذ تجرف بعض شبابه الغض المزدهر دوامات مائة يصبح نبأ لها ... ثم لا يعرف له شاطئاً ولا مرفأ . إن شباباً في أحلى أيام العمر بعد تخرجهم يتلهفون إلى هذه الأيدي الحانية التي تعترف بهم بشراً متطلعاً إلى آمال ، ولا يجب أن تقتل النفس الوثابة الآملة : ثمة سادية توجد عند قلة في المجتمع ، ولكن آثارها محرقة للنفوس ، وربما يستحيل شفاء من حروق وصلت درجة معينة .

كثيرون من هؤلاء الشباب فتية آمنوا بربهم ، ويجب أن نزيدهم هدى ... وإلا ، فنحن نشهد بعض ما يحدث . أن يجد الواحد منهم بعد سنوات من الدرس والتحصيل ، وعرق الآباء والأمهات أحياناً ، أنه أرسل إلى مكان لا يعرف فيه شيئاً ، ولا أوله من آخره ، ويقابل وجوهاً عابسة وربما صدوراً قاسية مستنكرة ... ماذا يفعل ؟ وأية قيم يكونها لتحل محل قيم أخرى ؟

هذه ثروة نلقى بها في البحر ، ويمكن أن تستغل ، وتفيد المجتمع ويستفيد الأفراد ، على الأقل نفسياً . ولا يجب أن نقول إن هذا أمر يتطلب مالاً ... والميزانية ؟ ... حسب أحد المسئولين أو المهتمين ، لست أذكر ، حسب حاسبة واحدة من الآلاف . قال إننا ننقل كل عام ستة ملايين من أطنان القمح ، ويتكلف نقل كل طن أربعين دولاراً .

ولو اشترينا ناقلات لوفرننا مئآت الملايين من الدولارات . هذا يعنى أن سوء التخطيط يجعلنا نخسر مئآت الملايين . . . وفى الأمر ما فيه .

إن مئآت الملايين من ساعات عمل وانتاج تضع لسوء التخطيط الذى يقع على عشرات الألوف من قوانا البشرية للقادرة على العطاء وأتمام انجازات من أعمال يدوية أو عقلية .

الكلام هنا عن نسبة مئوية عالية من خريجي بعض كليات الجامعات والمعاهد العليا ، وليس عن أقلية أصبح كثير من أفرادها - إن استطاعوا - يفضلون العمل بعيداً عن الإدارات الحكومية والقطاع العام . وقد صارت أحاديث عن الرجل المناسب فى المكان المناسب ، وعن البطالة المقنعة . . . الخ وهذه أمور يجب أن تؤخذ بمجدية نافعة .

الزهور دائما تتفتح

لم تكن دعوة عابرة تلك التى وجهتها لأحمد وعائلته ، فقد أصر قريب لى خرج إلى المعاش واتخذ الريف مقاماً له . ولنا فى القرية دار كبيرة حاضرة لإقامة مريحة والخير وفير . ولم يبد أحمد إلا كل حماس

كانت هذه هى المرة الأولى التى يرى فيها الطفلان ريف مصر الأخضر ، ولكن ما هال شوق حقاً هذه الأعداد الهائلة من الفلاحات يضيعن جزءاً كبيراً من وقتهن فى الحديث ، كما عجبت لأعداد كبيرة من الأطفال فى سن الإلزام ، وهم يعملون فى الحقول أو لا يعملون شيئاً ، والدراسة منتظمة فى المدارس . وأحب أحمد شخصية المضيف والمشروعات التى ينوى القيام بها وقد صار لديه الوقت ، وكان وما زال عنده المال والأفكار .

سأل للرجل أسئلة كثيرة عن استغلال الوقت في الدول المتقدمة وعن اعتماد أغلبية من السكان على أقلية تعمل لهم . وكان للظاهر من مسار أسئلته أن لديه شيئاً يريد أن يقواه . وكانت الظروف سانحة ، فنحن جلوس في ظل شجرة ضخمة ، والحقول حولنا وبقايا طعام شهى أمامنا في انتظار من يحمله وارثشف المضيف قليلاً من الشاي ثم قال

.

جميل جداً أن نفخر أمام الدول بأن لدينا تعليماً مجانياً في كل مراحل الدراسة من الصف الأول الابتدائي حتى الحصول على درجة الدكتوراه . وجميل أن للتعليم الإلزامي يمتد ست سنوات ، والاتجاه إلى زيادتها إلى تسع سنوات . ولكن أموراً خبرتها وخاصة هنا في هذه القرية وقرى أخرى جعلتني أفكر . وتفكيري يستند إلى الواقع المحسوس ولذلك فهو نابع من رغبة قوية ويهدف إلى هدف أراه خيراً لمصر . المثاليات لا تعنيني كثيراً ، بل قد أرى فيها بعض الخطر لمجتمع يعاني الكثير ويتطلع بكل الشغف إلى التقدم .

ولنأخذ أحسن صورة في واقع التعليم الابتدائي : كثرة عددية في تلاميذ القصف الواحد ، ولنتصور أن المعلم أو المعلمة على قدر من القدرة التربوية غير قليل ، ولنتصور أن نسبة حضورهما تصل إلى ٩٠ ٪ من أيام الدراسة (وهذا أمر مشكوك فيه جداً وخاصة بالنسبة للمعلمات المتزوجات) ، غير أن الواقع فعلاً أن أيام الدراسة كل عام ميلادي تصل إلى حوالي ١٥٠ يوماً ، يتعرض فيها التلاميذ إلى مواقف تربوية لا تزيد عن أربع ساعات يومية . وأسأل : هل يعقل أن الدراسة تنتهي في شهر إبريل كل عام مع ظروف مناخنا الجميل المريح ؟

وإذا نادى البعض بأن تمتد الدراسة إلى عشرة أشهر ، فإن بعض

المسؤولين سينبرون مستنكرين هذا التدخل الطائش في غير علم ولا دراية بأمر يفهمهما المختصون . . . لا بأس ، فهم يدافعون عن الدراسة المنتهية في إبريل بأن هناك امتحانات عامة من ابتدائية واعدادية وثانوية . . . وهي أساسية . والسؤال : ما دخل طفل الصف الثالث أو الرابع الابتدائي بهذه الامتحانات العامة ؟ أم أن أساس التربية في مصر صار الاعداد لهذه الامتحانات العامة ؟

كيف يعقل أن يبتعد الأطفال عن التربية والتعليم حوالى خمسة أشهر متتالية ؟ هذا تبيد في ثروة عظمى يمتلكها المجتمع وينادى صارخاً باتخاذ إجراء ثورى وكفى ما فات ، وما ضاع .

وهناك حجة دامغة يخضع لها بعض المسؤولين التربويين ، إذ أن بعض المحافظين ، ولهم سلطات رئيس الجمهورية ، يأمرون بأن تنتهى الدراسة في وقت مبكر حفاظاً على الثروة للزراعية . وأقول لهم : إن كل الحق معهم ، وما يفعلونه خير وأبقى ، بل يجب أن يصدروا هذه الأوامر التي يجب أن تنفذ .

والسؤال الخطير يقفز في نحد واضح : إذا كان هذا هو واقع الأمر في المناطق الريفية فلماذا هذا التمسك الملح بأن يكون التعليم في هذه المناطق هو نفسه التعليم بمنطقة مصر الجديدة التعليمية . . . مثلاً ؟ إن فكرة السلم التعليمي الموحد في كل أنحاء الجمهورية يجب أن يعاد النظر فيها بواقعية مجدية .

تلاقت نظراتي مع أحمد الذى كان يداعب هذه القطة الساذجة التي أتت إلينا بعد غياب ، ولكنها الآن معنا . أحسست أننى داخل إعصار جبار وعيناي تلتهمان وجه قريبي المحال على المعاش والذى يسكن الريف قال أحمد وللقطة آمنة معه ، وزوجته شوق تنتظر تعليقه

عهدنا في أمريكا هذه الزهات الخلوية ، وإن كنا نحن الذين نطهو بعض اللحم على نار الفحم ليعضد ما أحضرناه معنا كجاجة ، ونعيش بعض اليوم في أحضان الطبيعة حيث الهدوء والجو غير الملوث بالسموم . . . وقد سعدت اليوم بهذه الجلسة ، وربما تكرارها لسكان المدن يفيدهم جسماً ونفسياً . الفكرة التي أوردتها السيد الفاضل الذي أكرمنا فوق المزيدي ، فكرة تستأهل كل العناية وهي جديرة بأن تبحث في إطار الواقع الذي يعيشه وطني مصر العزيزة .

ليكن واحداً من أهدافنا الكبرى من التربية في مصر مكافحة الفقر والعمل على زيادة الانتاج على كافة المستويات . هذا يتطلب مزيداً من وضوح الرؤية في الموقف التعليمي في القرية المصرية . ليكن هناك تعليم ضروري مدته أربع سنوات يتعلم فيها الطفل الأساسيات الضرورية للحد الأدنى الذي يحتاجه للفرد ليكون مواطناً . ولو أحسن تعليمه فهو سينتج على قدر كبير جداً مما يتحصله طفل السنوات الستة الحالية بظروفها الراهنة . وإلى جانب هذا سوف يلم بشيء من المعرفة والمهارة الزراعية التي تتناسب مع البيئة التي يعيش فيها .

ويجب أن يكون هناك تأكيد واضح أن هذا التعليم الضروري ليس مرحلة منتهية بأية حالة من الأحوال . إذ يجب أن تفتح القنوات لتعليم مسائي - أو بأية صيغ أخرى - حتى يتابع من يريد ويواصل تعليمه . أقول من يريد ومن يرغب ، فلا إكراه هنا مطلقاً . بهذا نحن مع المحافظين نحافظ على الثروة الزراعية . وبهذا قد نقتل أعداد الأطفال في الصفين الخامس والسادس مثلاً ، وهذا يتطلب إعادة تنظيم شاملة لمنهج المدرسة الابتدائية آخذين في الاعتبار أن كيفية تقديم المعلومات في مقرر ما قد تؤدي إلى تقليل عدد الحصص الأسبوعية . إذ ربما ما يدرس في ست سنوات

يمكن أن يدرس في أربع سنوات بنتائج إن لم تكن أفضل فهي لا تقل . . .
إذا كانت طرائق التدريس والمجهود التعليمي مختلف عما هو حادث الآن .

ويجب أن تتغير صورة القرية المصرية والملايين من السكان الذين يعيشون
في آلاف من هذه القرى . الظروف الزراعية دعت بالضرورة إلى أن
يعمل الأطفال في الحقول ، ولزيادة دخل الأسرة الريفية يجب أن تعمل
النساء . في اليابان تعمل المرأة في بيتها ومع جيرانها في تجميع أجهزة الراديو
الترانزيستور بعد دورة تدريبية قصيرة ، ويكسب ويرتفع ، وترتفع
موارد الأسرة .

هنا انبرت شوق في حماس شديد واندفعت في خيرة حبيبة على بلدها
وعلى هذه الأيدي القادرة والتي لا تعمل ، قائلة إنه في الإمكان إقامة صناعات
زراعية وغير زراعية تسهم فيها المرأة الريفية دون أن تذهب إلى المصنع ،
وأن تعمل في دارها وتكسب لأسرتها . وتتساءل شوق عن هذه الآلاف
من كيلومترات من الأراضي على ضفاف النيل والترع والممرات المائية
التي لا يمكن أن تزرع أشجار فاكهة . . . إذ كيف يكون هناك نيل عظيم
وأرض خصبة ويترك كل شيء دون استغلال في بلد يشاق إلى الثروة
والتقدم ؟

ويتدخل المضيف وفي عينه اشعاع وضياء قائلاً قول سليم
وحكيم ، بل هو اتجاه بناء شهدت بعض لمحات منه في القاهرة فقد عملت
بعض ربات البيوت انواعاً من (المربى) و (المخللات) تبعيها بعض المخللات
وحققن ربحاً حلالاً لأسرهن في وقت ترتفع فيه الأسعار جنونياً . التربية
في المدارس في الريف يمكن أن تسهم ، وأن تسهم إسهاماً كبيراً في مكافحة
التقهر . ويجب أن تترك للمحافظات حريات كثيرة في تطويع العملية التعليمية
بحيث تؤدي إلى مكافحة للفقر في منطقتها . وقد تؤدي هذه الحرية إلى تفجر

ينابيع الابتكارية والإبداع . ربما كان التوقع في نظام تعليمي مفروض بكل أوامره داعياً إلى تكاسل في العمليات المطورة والمحسنة في تجويد : صحيح أن بعض مديري مديريات التعليم أجهلوا أنفسهم وحاولوا استخدام طرائق (مبتكرة) في تقديم المعلومات ، وهذا أمر محمود ، ولكنها في معظمها تمس جزئيات بعيدة عن التغيير الجذري . هذا التغيير هو ما نتطلع إليه كمحاولة لمكافحة الفقر ولمكافحة الأمية .

ولا أعنى بمكافحة الأمية تعليم المواطنين القراءة والكتابة ، ولكنني أتطلع إلى الفرد كفرد في المجتمع يتعامل مع نفسه ومع غيره من الأفراد ، ويتعامل مع المؤسسات والهيئات . هو فرد يعرف أين هو مع ربه خالقه ، أين هو مع نفسه ، أين هو مع غيره من الأحياء والأشياء . هو فرد إذا علمته كيف يقرأ ، فيجب أيضاً أن يتعلم حب القراءة . هذه معاني تتطلب من المسؤولين مجهودات غير قليلة لوضعها في صيغ إجرائية وسلوكية . وكيف يكون التنفيذ ؟

وتنبرى شوق قائلة . . . مقبول هذا ومعقول ، ولكن لا بد لي أن أعود إلى منطقة اهتمامي وهي المرحلة السابقة لهذه السنوات الأربعة التي تكلمتم عنها ، وأتكلّم عن أطفال الريف المصرى قبل سنّ السابعة . إذ مع التطور الحادث في المجتمع اليوم اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً . . الخ محلياً وعالمياً تبرز الأهمية الكبرى للعناية بهذه المرحلة . ومعروف أن في الاتحاد السوفيتى وفي الولايات المتحدة الأمريكية وفي غيرها من الدول المتقدمة والنامية أيضاً اهتماماً ناصعاً واضحاً بهذه المرحلة ، فقد رفضت هذه الدول أن يكون أطفالها صرعى تيارات هوائية مشحونة بالثلوث اللاتربوى . إن ما هو حادث في مجتمعاتنا من شبه تجايل لهذه المرحلة كان لا يجب أن يحدث ، وفي هذا المجال نحن لا نتقدم ، بل نتعاس ونفقد نفوساً وعمقاً على الطريق قبل أن يدخلوا المدرسة الابتدائية ، وبعض هؤلاء سيظلون عالة على

المجتمع طوال حياتهم أو شطراً كبيراً منها بل ربما أساءوا إلى المجتمع بما فيه ومن فيه .

زوجي أحمد لا ينسى عندما كان طفلاً صغيراً هنا ودخل الكتاب وحفظ سوراً من القرآن الكريم وتعلم شيئاً من القراءة والكتابة ، يذكر سيدنا ويذكر العريف والكتاب كما سمعت موجود اليوم أحياناً . . . هل نظوره ؟ هل نحسنه ونجوده كمرحلة قصيرة تعين مرحلة التعليم (الضروري) أو الابتدائي ؟ مصرنا اليوم تحتاج إلى كل الطاقات والإمكانات البشرية والمادية بعد تطويرها .

. . . . وتلفت الجالسون يتطلع كل إلى غيره ، ويقفز متصاعداً من عيني إعجاب بما سمعت ، وقلت . . . وحتى يكون اختيارنا من بين بدائل سليماً علمياً ووظيفياً ، علينا أن نفكر في المحصلات النهائية والواقع الفعلي . وليس الأمر قاصراً على الكم أو الأعداد ولكن التنبيه اليقظ إلى كيف مطلوب حتى لا تذرنا رياح المظهرية وتلقى بنا - ربما - في غيابات من الجب قد نخرج منه بعد الجهد الجهيد نادمين .

التكرار وارد للتأكيد على ضرورة انفتاح القنوات والمسارات التعليمية لدراسات نظامية - لمن يريد - بعد التعليم الضروري تحقيقاً (لديمقراطية التعليم وتكافؤ الفرص) هذا أمر لا جدال فيه . فقط أود أن أقرر - كما علمت - أن أجر العامل الزراعي ، الذي أصبح لا يعمل منذ شروق الشمس إلى غروبها ، يصل إلى ثلاثة جنيهات وربما أكثر ! والمضحك المبكي أن أستاذاً يسمونه لعلمه كبيراً ، وهو فعلاً كبير ، تعظيهِ اللوائح المالية ، الموضوعه منذ أكثر من ربع قرن ، جنيهين وتسعة عشر قرشاً بالكمال والتمام نظير حضوره جلسة تمتد إلى ساعتين ويدفع أجر مواصلات ذهاباً وإياباً أكثر من جنيهه ! ! ويعطى من وقته ساعة ونصف في الانتقال إلى مقر الاجتماع والعودة . ما ثمن الفكر والعلم والتفكير ؟

أنا اعتذر وأنا أتأسف فإن انفعالات معينة تدفعني إلى الخروج عن الموضوع الذي نحن بصدده ، قد يسميها بعض للقراء عملية تنفيس . . . لا بأس . وأقول إنها عملية تفريغ لشحنات عصبية في صراحة الحب لبلده والساعي إلى محاولة التخلص من السليبات والأخطاء وتصحيح المسار في مجتمع نستشعر فيه الأمان والرغبة الصادقة للأعمال الجادة .

أسرة كبيرة وغزيرة العدد ، والعلاقات فيها تحتاج إلى كثير من التقييم والتعديل ، ألا يجب أن يتدخل كبير هذه العائلة تدخلاً حازماً الآن والآن للضرب بكل قوة على العناصر المنحرفة في هذه الأسرة حتى نعيش في أمان الحب ودفء العاطفة الحلوة ؟ كم نشاق إليها

مرة أخرى اعتذر ، ولتصل الحديث التربوي ، إذ قد صار تفكير ثم قرار عن التعليم الأساسي ، وهذا أمر جميل ورائع ومظهر حضارى نتباهى به أمام دول أخرى ، وهو دليل دال على قدرتنا وأنا لسنا عجزة ، ونحمد الله ونشكره لكل هذا . ولكنني أعجب لوضع التعليم الابتدائي الراهن ، ومن لقطة صغيرة أقول إن بعض المنتهين من التعليم الابتدائي قد يرتدون إلى الأمية تدريجياً مع مشرق كل صباح حتى إذا اكتمل للقمر بديراً عدة مرات وصلوا هم إلى المحاق وضاعت مجهودات وملايين من الجنيهات . أسأل هل حقاً تستوعب الصفوف الأولى من التعليم الابتدائي كل الأطفال الذين بلغوا سن السادسة ؟ أم أن الصف الأول الابتدائي في مناطق كثيرة لا يستوعب إلا ثلاثة أرباع الأطفال ؟ وهؤلاء ينقلون إلى الصف الثاني حتى تكون هناك أماكن لوافدين جدد في العام الدراسي التالي . هذا يعني أن مدارسنا الابتدائية ليست قادرة - لعدة أسباب - على استيعاب كل أطفال سن السادسة ، وبالطبع غير قادرة على استيعاب كل الأطفال بين سن السادسة والثانية عشرة . وقد أجريت دراسات عن هذا الحال وأرجو أن تدرس بعناية .

لكن النية الطيبة موجودة - وفي هذا خير - ويمكن أن يتحقق التعليم الأساسي في بدايات القرن الحادى والعشرين ، وهذا أمل عند البعض . وطبيعى أن الخريطة التعليمية لهذه السنوات التسعة ستكون خطوط طولها وعرضها مغايرة لواقعنا وتصورنا الآن ، وسوف تكثر روافد أنهارها لتحقق تنوعات في المقررات والدراسات . . . بل ربما نظرة ليست في حسابنا ، والله الموفق أولاً وآخرأ .

* * *

وتميل شمس الأصيل إلى المغيب ، وطالت ظلال الأشجار ، وتهب نسائم فيها بعض من برد ضم الثياب على الأجسام ، وهرعت القطة الساذجة إلى حضن دافئ . ولكن في الحديث شوقاً ، وشوق متلهفه بكل الحواس للإستماع والكلام بكل الاستمتاع . وأحسنا أن الزرع الأخضر وقد شبع من الهواء والشمس الحانية قد ارتاح وسكن وفيه زاد لليل طويل ، وفيه رغبة إلى فجر ندى . وعلى البعد فلاحون يعودون إلى بيوتهم وزوجاتهم وأولادهم ، وتتوقف السواقى ويبدأ يخيم هدوء فقد قاربت سحابة يوم على النوم .

.....

.....

ولكل حادث حديث ، وقد عدت إلى الكلام بعد أن احتوى الليل القرية الوادعة ونشر عليها جواً بارداً قتلته جذران الدار السميقة مع جذوات من نار . . . :

ليس المفروض ، بل ليس من المعقول أن يكون المقصود بالتعليم الأساسي تحويل العملية التعليمية إلى اهتمام زائد بإتقان بعض الحرف ، وكأن مرحلة التعليم الأساسي هي مرحلة تعليم سابق للمهنة .

أبلاً . . . في تصوري . . . لا يجب أن يكون الأمر ما قد يظهر في بعض المدارس من اندفاع حماسي لعمل (كبش) معدنية أو لعمل سلال من خامات البيئة المحلية ، ونتاج مئات من زجاجات الشربات بمذاقاته المتعددة وحرص تلال من أوعية (المرني) بطعومها للسكرية المختلفة الحلوة . . . الخ .
أكان أقول بقاطع الكلام أن وزارة التعليم اليوم لم تقصد هذا ، ولم يكن في نية المسؤولين أن يتحول الأمر إلى هذا . ثمة حلقة تساؤلية مفقودة ، بين وضع السياسة وتخطيط المناهج والتنفيذ .

وقد عهدنا في أضاير وزارة التربية والتعليم ، أو حالياً وزارة التعليم والبحث العلمي ، ألواناً من التهافت . والتهافت كما يقول الإمام الغزالي هو التسرع بجهل ، إذ يقول إن البعوضة لأجل ضعف إبصارها تطلب ضوء النهار ، فإذا رأت ضوء السراج بالليل حسبت هذا السراج كوة أو فتحة من البيت المظلم يدخل منها ضوء النهار فترى بنفسها إلى السراج ، وتكرر المحاولة مرات وهي تحسب أنها متجهة نحو نور النهار حتى تحترق .

أخشى أن يكون قد حدث تهافت نحو التعليم الأسامي من قبل المخططين والمنفذين وفهموا الأمور على غير ما يجب أن نفهم ، فتحترق الفكرة الجميلة . . . ولا أعتقد أن ما يحدث في بعض المدارس هو ما قصده وزارة التعليم في عمق ونبيل معنى التربية الأساسية كمرحلة تعليم . . . المولم أنها تحولت إلى تغييرات غير هامة في المنهج كككل وتغيير في عدد قليل من المقررات .
أقول هذا ، وقد اختلف مع البعض في المدى الزمني لهذه المرحلة .

وقد عهدنا في سجلات تربيتنا المعاصرة ألواناً من (التهافت) ، وعلى سبيل المثال : (هوجة وسائل الإيضاح) في منتصف الخمسينات من هذا للقرن . . . إذ أوحى إلى بعض قم المسؤولين الإداريين عن التعليم في ذلك الوقت أن (وسائل الإيضاح) هي آخر وأجل صيحة تربوية . وبسلطة

ثورية صدرت أوامر ومنشورات أرسلت إلى المدارس للتنفيذ : ولم يتم الكثيرون من النظار ، وإذا نام بعضهم حلم بوسائل الإيضاح :

وتسابق القوم - كالعادة - في نيات طيبات لتنفيذ ما جاء بالمنشورات ، ولكن بوعى أغلبه غير سليم . وتمر أيام غير كثيرة عندما توقف المارة أمام بعض المدارس وقد غطت واجهاتها بالخرائط وغيرها من مصورات ورسوم بيانية . وقال طيبو القلوب والله هذا خير لتثقيف الشعب داخل وخارج المدرسة . أما في داخل المباني المدرسية فقد غطيت جدران الفصول والممرات بهذه الوسائل الايضاحية التي أنتج بعضها المدرسون والتلاميذ وأنتج معظمها محال فتحت فجأة بجوار المدارس يعمل فيها رسامون وخطاطون مهرة وظهرت في المجتمع (حرفه) جديدة في خدمة التربية والتعليم !!

وانزوت العملية التربوية السليمة في تضاعف وخجل أمام هذا (المولد) و (السيرك) الذي نصبته مدارس الدولة . إنزوت متألمة وهي تصيح في غضب . وبدأت العاصفة الهوجاء تهدأ رويداً رويداً بعد أن أصيبت معدة بعض المدارس بهذه التخممة الغذائية التي كبست على صدرها وضايقت أنفاسها .

وتحكى الأضابير أنه حدث أن هب من هب وصاح بخرجة قوية ، وما أكثر أصحاب هذه الخناجر ، قائلاً . . . النشاط . هي كلمة ساحرة في ذلك الوقت ، في شتاء الخمسينات أو خريفها . وصار كالعادة تهافت . واعزفي يا موسيقي ما شاء لك لأطفال وتلاميذ تركوا فصولهم - بأوامر - ليتدربوا على حركات رياضية وإيقاعية استعداداً لمهرجانات كبرى وصار تهافت بناء على أوامر .

أبدأ ، حتى لا تتلقى العملية التربوية على أم رأسها وفي رأسها شوك من حديد أحمر ملتهب . . . ليت الأمر كان شوري ، بمعنى أن يشترك المنفذون

في اتخاذ القرارات . هذا ما تحاول التربية كهدف من أهدافها أن يشترك المتعلمون في اتخاذ القرارات ، والأولى أن يشترك المعلمون والنظار في اتخاذ القرارات . إذ كيف تسلب فرداً حقاً وتقول له علم تلاميذك ما سلب منك ؟ عجب !

وصارت في وقت من الأوقات هوجة أخرى - وما أكثر هذه الهوج في بعض أمورنا التربوية - عنوانها : المدرسة مركز إشعاع . وباختصار - أراه مغللاً لمعنى هذه العبارة ونتائجها - أقول إن ناظر مدرسة وضع في فناء المدرسة (كلوباً) ضخماً ومشعاً في إنارته . وسئل : لماذا ؟ قال حتى تصير المدرسة مركز إشعاع للمجتمع هكذا . . . أمر يضحك ويبيكى .

التكالب الأهوج المتسرع لتنفيذ إيماءة من (كبير) دون تروٍ وتأنٍ ، هو سلوك طفولي كعيل الرجل الذي يريد أن يقول لأبيه . . أنا شاطر . . . وأنا خير من إخوتي ومن يلدى ما قدرته الحققة . إذا كان التنافس والجد لمصلحة عامة ، فالأمر مقبول ، أما السطحية والقشرية فهي زيف مضلل ومهدم لسبيل التقدم .

نحن هنا ، وبكل القوة ، أمام أهمية القدوة الحسنة ، إذا رأى التلاميذ زيفاً في سلوك معلمهم إرضاء لرئيسه ، ويرضى الرئيس ، وهم يعلمون حقيقة الواقع ، فأى قيم تتكون لسيهم ؟ وبعد أن تكون المدرسة زارعة لآتجاهات وقيم تدفع المجتمع إلى التقدم ، إذا بها وعلى أيدي رجالها - أقصد بعضهم - تأخذ بيد التقدم إلى التخلف . وهذه أيضاً كارثة حضارية ، أرجو ألا يحدث في مصر إذات حضارة تمتد في الماضي إلى أكثر من سبعين قرناً .

عسانا إذن نتمهل في تعقل علمي ، ونقيم الموقف فيما يخص بمرحلة

التعليم الأساسى وما يدور فيها . ربما هى واحدة من بدائل أخرى
بل ربما هى ليست أفضل البدائل ، كما أنها ليست أسوأ البدائل . هل صار
- مثلاً - تفكير فى المشروعات الإنتاجية ذات الفعاليات المؤثرة ؟ وهذه
عملية يلعب فيها المربون أدواراً محدودة ، ويلعب غيرهم أدواراً رئيسة دون
أن يحس المربون حساسية ما ؟ إذ الأمر يتعلق بتربية أفراد من الشعب .
إن عملية التربية ليست مملكة المربين فقط .

نحن نصور تربيتنا حسبما يقتضيه ويتطلبه مجتمعنا ، وقد نستفيد من صيغ
أخرى ، لا بأس . لنا واقعنا ، وفى إطاره ، وعلى أساس قيمنا الإيمانية
نحن نقرر وربما نخرج بصيغ جريئة ، ولكنها تنبع من معاناة المجتمع
محاولة أن تشفى بعض العملل . قد تتعارض مع المؤلف المعهود ، وهذا
هو التحدى الحضارى فى عالم يتصاعد تقدماً .

هنا نحن ننحت صيغاً ترضى المجتمع ولا تتجاهل الأفراد . وهنا نحن
لا ندخل فى محاكاة أو سباق مع الغير ونختلف ظروفهم عن ظروفنا .
ولا يجب أن ننجعل دولياً ، إذا كان سلمنا التعليمى أو سنوات الإلزام مختلفاً ،
وقد يكون أمراً متواضعاً . فالمجتمع المصرى مر فى ظروف عصيبة قاسية
بتعديها إلى مرحلة بناء وانتعاش آملاً فى تقدم وازدهار ، وهذا عمل صعب
ويتطلب الكثير من الإيمان والجهد . ونحن له ومع .

إن إرضاء الحاجات الفردية والاجتماعية فى بيئة معينة يتطلب نظاماً
تعليمياً معيناً ، قد تقل سنوات الإلزام فيه أو تزيد عن بيئة أخرى ، ما لنا
وغيرنا ، نحن نتبادل الأفكار ولناخذ ونستعين ونفقد مما يتناسب مع ما نحن
فيه من آلام وآمال ، مع قيمنا وإمكاناتنا البشرية والمادية .

إن الصالح الأكبر للمجتمع لا يجب أن تتحكم فيه أهواء صادرة عن
تقاليد وعن قيم ربما صارت بالية ثم نخضع لها تاركين الدنيا تجرى

ونحن نحاول استرضاء اشياء صلحت لوقت مضى وغالباً لا تصلح لمجتمعنا الآن : تكون نتيجة (الدلع) الإجتماعى تخلصاً في العمالة وبطالة مقنعة ، هى في ذاتها تثير المتأوهين منها إلى الغضب . ولتعمل دراسات علمية عن المتسربين والفاشلين ، وكم كلفوا الدولة ملايين الجنيهات وكم حرقوا من أعصاب أولياء الأمور ، وكم عانوا وأثر ذلك على انتاجهم وصحتهم . أطلب مواجهة بصراحة الصدق ، وسوف تكون أخبار غريبة عجيبة .

فجر الصيادين ..

كان الفجر وصلاته ، وقد صحبت المضيف وأحمد وابنه أحمد إلى مسجد القرية : والناس يستبشرون بيوم جديد . وعند عودتنا إلى الدار رأينا جموعاً من الفلاحين رجالاً ونساء وأطفالاً يتوجهون إلى الحقول . وتبسم المضيف وهو يراقب أحمد في تطلعه النهم . وليس بعد الفجر نوم في هذه القرية .

قال المضيف زرت منذ فترة بعيدة قرية على شاطئ بحيرة ، جل عمل السكان يعتمد على صيد السمك ، وقلة قليلة لا تعمل عملاً مفيداً يكمل مع غيره آلة العمل الكبيرة . هى قلة قليلة جداً . . . ، ولأسباب . وكثيراً ما خرجت مع الفجر إلى الشاطئ والمرفاً الآمن لمراكب الصيد والصيادين وقد عادوا بعد رحلة عمل ، ربما تلاعبت بهم أحياناً بعض الأمواج ورخات من أمطار ، وأحياناً كثيرة يتسم لهم سطح البحيرة ، فيطرب الماء ونجوم في السماء لأغانيم الشعبية التى تزداد فرحاً عند ما يرفعون الشباك وفيها صيد سمين وثمين .

وعندما لاح لهم الشاطئ وهم يقتربون منه وهو يقترب منهم يريد أن يحتوهم بجنانه تعالت الأصوات ولمعت العيون وتراكضت الأمواج الخفيفة الصغيرة نشوى . وكل شيء جميل عذب فقد أدى كل صياد دوره وسوف ينام سعيداً ، والذين ناموا سواد الليل سوف يعملون . تكنولوجيا أى تخطيط وتنظيم وتنفيذ . لكل فرد في هذه الأسرة الكبيرة من العاملين دوره المحدد والواضح . البعض يصنع الشباك ، والبعض يبنى المراكب الصغيرة ، والبعض يصلح ، والبعض يسوق . . . الخ ، وتعيش القرية الساحلية سعيدة .

ومن بعيد . . . بعيد ، ولكنه قريب قريب يتطلع كبير هذه القرية الساحلية ومختارها ، فقد جلس معهم وإليهم ، وتكلم كثيراً ومعه رجال مخلصون عن الامتثال لأوامر الله عز وجل وعن قيمة العمل المنتج حتى صار كل فرد في أصغر عمل يخشى غضب الله العلي القدير فيحسنة ويجوده متأكداً بأن بعض الهنات الصغيرة قد تحطم وتودي بالعمل الكبير ، وماذا يعنى مستصغر الشرر ؟ . . . هذه قيمة ما أجلها وما أعظمها .

العامل في مصنع كبير في دولة صناعية عظمى وهو واقف على خط الإنتاج يعلم أن ما يعمله ولو كان صغيراً جداً تتوقف عليه سمعة الصناعة ومنتجاتها التي تصدرها بلده . هو مسئول عن سمعة بلده .

ما يدور في هذه القرية الصغيرة يجب أن يحدث في المدينة وفي كل أنحاء الوطن . وحتى نتخلص من اللامبالاة والتسبب يجب أن تكون العقوبات رادعة فعلاً ، ومنفذة فعلاً . والأمر يتطلب في المقام الأول قوانين صارمة وقوة حسنة . وإذا حدث خطأ أو إهمال أو تسبب من فرد في موقع عمله ، يجب أن يسأل ، ويجب أيضاً أن يسأل عن تسببوا في هذا .

وليس هناك كبير وصغير ، وإنما الكل يعملون ويقبضون ، وقد قبلوا أن يعملوا وقد علمتهم الدولة بالهجان .

الصيادون في فجرهم وعلى مراكبهم وضعوا لأنفسهم ومع كبيرهم تقاليد وقوانين تنفذ ، والجماعة تعاقب من يشذ ، وقد تنبذه . إذن فهي قرية ساحلية عادلة يخشى سكانها غضب الله وغضب كبير العائلة وغضب أفراد هذه العائلة . فكان عمل وانتاج وانسحب التسبب والغش والتضليل . وقد ينسحب الأمر كله أو بعضه على آلاف من القرى في ريف مصر بما فيها من ذكور وإناث ، بل قد ينسحب على البنادر والمدن ، إذ ليس للقيمة التربوية حدود .

• • •

وبعد تناول طعام الفطور انضمت إلينا شوق قائلة إنها قد سمعت بعض أطراف الحديث ، وأعجبت بقرية الصيادين هذه وفجرهم الجميل ، وسألت عما تفعله النساء في هذه القرية الساحلية . وكان الرد أنها عضو فعال في هذا المجتمع تسهم مع غيرها في تنميته لأنها تعرف واجباتها وحقوقها قالت :

والأمر إذن واجب في المدن حيث الحياة أكثر احتياجاً إلى مزيد من تفهم للتربية الأسرية . ليس الأمر أبداً حصصاً في الحياكة ، وطهى بعض الأطعمة ، وتدبير شئون البيت . . . هذه أمور ضرورية وهامة ، ولكن جدت في الأمور أشياء نحتاجها اليوم بكل قوة . قد يرى البعض في كلامي سياحة خالية ، وأراها أموراً واقعية مجدية ، وقد سبقنا دول أخرى اهتمت بالتربية البيئية والتربية السكانية ، بل دعت الآباء والأمهات للتوعية . غريب في الخمس الأخير من القرن العشرين وما زلنا نعلم طالباتنا

فرعين أو أكثر من فروع الاقتصاد المنزلى تاركين فروعاً أخرى لا تقل أهمية ، بل هي أكثر أهمية في بناء المجتمع . على سبيل المثال ، وفي اختصار ، هل تتعلم بناتنا في المدارس (ترشيد الاستهلاك) ؟ لعل وزارة التموين تتوق بكل الحماس إلى تدريس الترشيد . بل المطلوب مزيد من التأكيد على تكوين عادات غذائية سليمة . إذ لماذا نحمل ونرهق ميزانية الدولة - في دعمها لسلع غذائية - بأكثر مما تحتاجه البطون . وعلى الطباي والموائد ترك بعض من أرغفة الخبز وربما لا يستفاد منها ، وتطير في الهواء ملايين الجنبات . ثم تعالوا ، وقولوا لي ، لماذا لا يتعلم أبناؤنا وشبابنا بعضاً من فروع الاقتصاد المنزلى ، فكثير من العاملين يتزوجون عاملات . والتعاون العائلي مطلوب .

كما أن اهتماماً زائداً يجب أن يوجه لتربية الأطفال في مجتمع اشتراكي ديمقراطي ، وهذا من مسئولية التربية الأسرية . لقد مجدوا دور الأم في بناء المجتمعات . . . هل تعرف مدارسنا الابتدائية في مواد الاقتصاد المنزلي شيئاً من هذا ، وقد عرفت أخيراً أن التربية الأسرية أو الاقتصاد المنزلي يدرسه هنا أيضاً الأولاد أحياناً ، والله هذا خير ، وخير كبير ، أرجو أن يزداد بعد أن يعاد النظر في مناهجه بحيث تؤدي إلى اكتساب معلومات ومهارات تنفع المرأة والرجل ، وتكون اتجاهات مثل التعاون ، وتنمى مع التربية ، الفنية التذوق الفني والجمالي . . . وقد يظهر هذا في اختيار ألوان الملابس ، على قلتها ، لا بأس ، في تجميل البيت وإن كان حجرة أو حجرتين ، لا بأس . منذ قرون تكلم الإمام الغزالي - كما سمعت منكم - عن آداب الأكل ، هذا حسن ، إذن لتتعلم ونعلم أطفالنا آداب تناول الطعام .

أقول إن هدفاً رئيسياً من أهداف التربية هي المحافظة على ثروات المجتمع وصيانتها . قد تسهم التربية الأسرية بنصيب وافر في هذا مع غيرها من مواد الدراسة . زمان كنا لا نحفل ولا نهتم ، بل ونعيب ببعض المرافق

العامه ، نكاية ومحدباً للإستعمار أو الشركات الأجنبية . اليوم مصر مصرنا بكل ما فيها ويجب أن نصون ونحافظ على كل ما فيها ، لأن في هذا خيرنا .

ما أبجل وأجل أن تبدأ مفاهيم التربية السكانية والبيئية من مواد الاقتصاد المنزلى فى المرحلة (الضرورية) أو (الابتدائية) أو (التعليم الأساسى) ، المهم أن تبدأ ، وبكل ما يمكن أن يتاح من وسائل الاقناع الواقعى والانفعالى والعلمى . إذ أن إعلانات الجرائد والمجلات والتليفزيون لا يقرأها ولا يراها أشد أفراد هذا المجتمع إنجاباً وذرية . إن نظرة شمولية تكاملية بين الاقتصاد المنزلى أو التربية الأسرية مع مواد أخرى ربما تؤتى أكلها ، ومن يدري ؟

أرجوكم - لخير بلدى - أن تبتعدوا عن هذا المفهوم غير السليم ، والذى يصلح لقرن مضى ، وقوامه النظر إلى الاقتصاد المنزلى على أنه حياة وطهى وغسل وكى . أبداً ، بل أبداً ، الدنيا تطورت ، وهذا الفرع من المعرفة يجب أن يتطور ، وفى تطوره الجاد الصحيح تصحيح للكثير من العادات التى تثقل ميزانية الدولة لقصور وضعف الوعى . إذن فلنتجه بكل القوة والعلمية ونعالج سوء الاسهلاك المادى والبشرى بداية من مرحلة التعليم الأولى حيث تبدأ الاتجاهات تتكون .

.....

.....

ما زالت الصورة التى استمعنا إليها منذ لحظات عن الصيادين وفجرهم وتعاونهم وأعمال أفراد القرية - كما أتصورها - تدعونى إلى كثير من التفكير . . . هكذا قال أحمد وأردف مضيفاً . . . كم يكون رائماً أن تهدف للتربية منذ بواكير الطفولة إلى تكوين اتجاه التعاون والعمل

الجماعى . التعاون على البر والتقوى ، التعاون فى كل مناشط حياتنا ، صغيرها وكبيرها سهلها وصعبها . فليعرف الطفل مفذ نعومة أظفاره ، ويرى ، ويلاحظ ويفهم . إذا لم تكن الأم عاملة خارج البيت ، فالوالد يعمل خارجه والأم تعمل داخله ، والأعمال تتكامل لتبئ له حياة فيها راحته وغذاؤه وكساؤه ومأواه وتسليته ويتدرج هذا الفهم عن أهمية وضرورة التعاون مع نموه الزمنى والعقلى ، عندما يلعب مع أصدقائه ، وعندما يجلس للتعلم ، وعندما يشاهد - مثلاً - مباريات كرة القدم ، فإن تعاون وتفاهم الفريق المكون من أحد عشر لاعباً أمر ضرورى . بل إن رغيغ الخبز الذى يأكله تشترك فى عمله عشرات الأيادى ، ولكل يد دورها وله أهميته . البدار فى تكون الاتجاهات الصالحة خير ، فإن مصرنا الحلوة تزداد حلوة بأبنائها ذوى الاتجاهات البناءة . هذه مسئولية كل الأوساط التى تشترك فى تكوين اتجاهات المواطنين .

من حق المواطنين الشرفاء أن يغضبوا لهذا التسبب والإهمال واللامبالاة عند البعض فى جوانب من حياتنا العامة قد يبلغ حدأ خطيراً مهدداً . وقد يكون من أهم الأسباب غياب بعض الاتجاهات السليمة التى يجب أن تتكون عند أفراد مجتمعنا بداية من الطفولة . بعض الدول تعد برامج لتربية الوالدين حتى لا تكون هناك هوة بين ما تحاوله التربية النظامية وما يحدث خارج المدارس قبل أن يدخلها الأطفال وأثناء تعلمهم فيها . الإنحراف عن جادة الصواب فى بلد يسعى إلى التقدم خطير ومثير للتفكير .

.

.

المسبحة الثمينة والشعر الفضى ، وقطة ساذجة سوداء عرفت الطريق
رة أخرى إلينا وهى تتودد ، وأحمد قد شفاه الله ، وعادت الابتسامات
إلى الشفاه ، ووجه شوق يفيض شكراً لله عز وجل ، وأنا استمتع بوجبة
فكرية شهية وكانت تدور فى رأسى خواطر متسائلة - وما أكثرها -
وعلى سبيل المثال : هل يعمل المرءوس لرئيسه أم مع رئيسه ؟ وأسأل :
لماذا لا نتعلم أن الاختلاف فى الرأى لا يجب بالضرورة أن يؤثر فى العلاقات
الإنسانية ؟ وأسأل : هل فى الخطأ عيب ، أم أن الاستشراء فى الخطأ وعدم
الاعتراف به هو العيب ؟ هذه نقاط قليلة من نقاط كثيرة يجب أن تهدف
التربية إلى معالجتها والاهتمام بها . فالإنسان المصرى المصرى يفتقد إلى
الكثير مما يجب أن يكون فى نسيج تكوين شخصيته . وهنا يجب أن أؤكد
أن التعميم غير وارد مطلقاً ، إذ بين ظهرانينا رجال ونساء عاملين وغير
عاملين ، مرءوسون ورؤساء على كافة المستويات ، هم بكل الاعتزاز
فخر لمصر ، إنهم آمنوا برهم ووطنهم فى سعى دائب للخير .

هى خواطر وتساؤلات تجيش فى رأسى ولست أدرى ماذا
حدث ؟ فقد انبرى من حولى فى نقاش طويل سداه ولحمته محاولات
للإجابة عن تساؤلات صامتة ، ربما خرجت من رأسى فى اشاعات أثرية
أو غيرها التقطتها أدمغة الموجودين وهزتها فاستجابوا فى حماس وضياء
عبرت عنه كلمات متوهجة فى إيقاعات نابضة .

.

وجه فتاة ريفية متورد تقفز السعادة الطاهرة منه ، وتحمل أكواباً
من الشاى وهى تتقدم منا وفجأة يكفهز الجوف فى قسرة ، وتحتضن
شوق إنبا وابنتها ، وتموء اللقطة فى ذعر ، وجميعنا يسأل الله اللطف . . .
والريح صرصر مدوية ، وحباب من البَرَدُ تدق السطوح فى اصرار محدثة

جلبة غير مريحة . وظهر خلل في المكان . وحدث تشقق طفيف في الجدران .

وساد صمت خائف رهيب مريب .

وقرب الخوف بعضنا من بعض في شبه تلاصق ، كأنما يستمد الواحد من غيره قوة لمواجهة هذا التحدي .

والطبيعة في عنفوانها لا تعبأ ولا تراعى ، وزئيرها يدوى وهو أعتى من رغبتنا ورجائنا .

وقد تسلل بعض البرد الذي ذاب ماء إلى بعض المكان .

قال المضيف ما حدث ويحدث الآن أغرب من كل خيال . أمر لم نعهده في قريتنا من قبل . . . لعله إنذار لنا في لغة عجيبة غريبة مثيرة للكثير من التفكير لا أعلم ماذا أقول ؟ إن كل شيء محير . إذ كيف تشقق الجدران ؟ ومن أين لنا بهذا البرد . . . وغيره ؟ إلهي ياربى . . . رحمتك . وازدادت الطبيعة قسوة

صحت أنا . . . لا يجب أن نقعد في سلبية وسواعدنا قوية . . . نفهيا إلى العمل ، ولتقابل التحدي بتحدٍ ، وفي تعاوننا قوة قادرة على عمل الكثير ، وكل على قدر جهده ، ولكن لنعمل جميعاً .

وصار توجيه وتخطيط ، وانتشر جميعنا للعمل .

.

وتشرق الشمس

والقروية صاحبة الوجه المتورد الذي تقفز السعادة الطاهرة منه تتقدم من المضيف وأنا ، وهي تحمل (صينية) عليها فنجانان من القهوة